رفاعة رافع الطهطاوي و مساهمته في الأدب العربي الحديث

بحث جامعي لنيل شهادة

ما قبل الدكتوراه

الباحث

ذاكر حسين جمشيد

تحت إشراف

البروفيسور فيضان الله الفاروقي

مركز الدراسات العربية والأفريقية

كلية الدراسات اللغوية والأدبية والثقافية

جامعة جواهر لال نهرو

نيو دلهي-١١٠٠٦٧

الهند

٢٠٠٤

مركز الدراسات العربية و الأفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi-110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067

Date: 19 July, 2004

DECLARATION

I declare that the material in this dissertation entitled **"REFA'AH RAFIE' AL-TAHTAWI AND HIS CONTRIBUTION TO THE MODERN ARABIC LITERATURE"** submitted by me is original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other University.

Z. H. Jamshed

ZAKIR HUSSAIN JAMSHED
(Research Scholar)

Prof. S. A. RAHMAN
(Chairperson)

Prof. F. U. FAROOQUI
(Supervisor) 19.7.05

Gram : JAYENU Tel.: 2670 4253 TELEX : 031-73167 JNU IN Fax : 91-11-2671 7525

المقدمة

ذات يـوم كـان الأستاذ البروفيسور أسلم الإصلاحي يلقي محاضرته في الفصل حول شـخـصية رفاعة الطهطاوي الفذة، وخلال محاضرته حث الطلبة الدارسين على كتابة البحث حـول حيـاتـه حتـى تتـجـلـى جوانب حياته العلمية والثقافية والأدبية، كانت هذه أول بذرة ذرعـت فـي فكرتي فأخذت تنمو حتى استوت على ساقها، وعندما جاء دور إختيار الموضوع لـلـبـحـث مـا قبـل الـدكتـوراه خـطر ببالي قول الأستاذ، صممت على كتابة البحث حول هذه الشخصية الفذة، وكان هذا تحقيق لأماني الأستاذ البروفيسور أسلم الإصلاحي ·

ثـم نـاقشـت عـن هـذا الـمـوضـوع مـع الأستـاذ الشـفوق البروفيسور فيضان الله الـفـاروقـي فـأعـرب عـن إعـجابه و تقديره به و وافقني على هذا الموضوع القيم، وكلما واجهـت الـمشـاكـل والـصـعـوبـات فـي البحث عن المواد، شجعني وأرشدني إلى مضان المصادر والمراجع في المكتبات المختلفة في داخل دلهي و خارجها ·

رفـاعة الـطهـطـاوي مـن أندر الشخصيات العربية الإسلامية التي يزدان بها التاريخ الـفكري العربي وهو مثل تقد ما حقيقيا ــ كما سيأتي ــ في ميادين الفكر والثقافة والحياة الـقومية و وضع لبنة أولى في بناء التقدم العلمي واللغوي والأدبي في مصر، في حين كانت مـصـر والبـلاد الـعـربية يسـودهـا الـجهـل والـخـمـول والفوضى والإضطراب، وقام رفاعة الـطهـطاوي بإيقاظ البلاد العربية ولاسيما مصر من سباتها العميق و جعلها تتطلع إلى عالم جـديـد من التفكير و الإبداع والإختراع حتى حققت مصر والبلاد العربية النهضة العلمية و الأدبية الحديثة، ولذا يعد رائد النهضة العلمية والأدبية العربية الحديثة ·

وكان رفاعة الطهطاوي مثالا حيا للطالب الفذ الذي لم يدخر وسعاً في تحصيل العلوم والفنون والآداب فأصبح في قمة النابهين و كان نموذجا حقا للمواطن الصالح الذي عمل جاهداً لنفع بلاده، و نقل المعرفة ووسائل النهضة والحضارة إليها عن طريق التأليف والترجمة وإنشاء مدرسة الألسن بمصر.

ويرجع الفضل في كل هذا إلى رحلته لفرنسا حيث أقام بها خمس سنوات، ولم يضع رفاعة الطهطاوي أية فرصة للدراسة والكد منذ وضع قدمه على ظهرالباخرة التي نقلته إلى فرنسا، بدأ يتعلم اللغة الفرنيسة فأتقنها في ثلاث سنوات و مع أن رفاعة لم يذهب مع البعثة الإ مشرفا و مرشدا. فقد أبى إلا أن ينغمس في العلم إلى أذنيه، كان يظن قبل رحيله إلى أوربا ألّا علم إلا في الأزهر حتى إنه نظم قائلا:

ألا من يغب عن أزهر العلم فلينح على بعد دار العلم والعلماء
ففيه بحور طاميات وغيره بحور عروض لا تجود بماء

ولكن سرعان ما أقر قلبه المتفتح للنور بما للغرب من تقدم و سبق في مجال العلوم جميعها فأصبح يغترف من مناهلها حتى يشفي غليله و انكب على الكتب الفرنسية في التاريخ والجغرافيا والفلسفة والأدب، يقرأ و يؤلف و يترجم، كان رفاعة الطهطاوي في فرنسا مثال الصلاح والإخلاص للرسالة التي شرفته بها الأقدار - ثم عاد إلى و طنه العزيز و تدفقت من دواخله الأفكار التي لعبت دورا ملموسا في شتى النواحي من التأليف والترجمة و الإصلاح والتربية والشعر والكتابة الفنية والعلمية.

وأنا في بحثي هذا حاولت أن أجمع تلك الأفكار والآثار المنتشرة في بطون الكتب المختلفة وبذلت قصارى جهدي في هذا الصدد كما قمت بالبحث عن المواد الكافية في المكتبات المختلفة في داخل دلهي و خارجها بما فيها مكتبة جامعة جواهر

لال نهرو و مكتبة جامعة همدرد و مكتبة الجامعة الملية الإسلامية و مكتبة جامعة دلهي و كذلك مكتبة آزاد للجامعة الإسلامية بعلي كره و مكتبة شبلي بدار العلوم لندوة العلماء، لكهنؤ وإلى غير ذلك.

و مع ذلك أنه يمكن أن يفوت مني بعض جوانبه التي لها أهمية فالتقصير مني والإعتذار إليكم عن ذلك.

قد قسمت هذا البحث إلى أربعة أبواب، فالباب الأول يشتمل على ثلاثة فصول، تحدثت فيه عن الأوضاع الإجتماعية والسياسية والعقلية والثقافية السائدة آنذاك، والباب الثاني يشتمل على خمسة فصول و حاولت فيه تسليط الأضواء على جوانب حياته المختلفة من حياته وفكرته الإجتماعية و إقامته في باريس وأعماله بعد عودته من فرنسا و خدماته التدريسية والثقافية و مكانته لدى العلماء الآخرين، والباب الثالث يحتوي على خمسة فصول أيضاً و تحدثت فيه عن جوانبه الأدبية من إصلاحاته في مجال التعليم و التربية وأفكاره وآراء ه في قضية المرأة و إسهاماته في التعريب والترجمة و نقل العلوم الغربية إلى اللغة العربية وكذلك عرفّت بعض آثاره القيمة التي لعبت دوراً ملحوظا في النهضة العربية الحديثة و تأثيره في الفكر السياسي والإجتماعي في الأدب العربي الحديث.

وأما الباب الرابع فإنه يشتمل على فصلين و تكلمت فيه عنه بصفته الناثر والشاعر و قدمت فيه بعض مقتطفاته الشعرية والنثرية، وأنهيت هذا البحث بخاتمة وجيزة قدمت فيها خلاصة البحث في كلمات وجيزة.

وأخيرا و ليس بآخر أعبر عن خالص شكري و امتناني لاستاذي الكريم البروفيسور فيضان الله الفاروقي على إشرافه و مساعدته العلمية والتوجيهية القيمة

والأستاذ البروفيسور أسلم الإصلاحي جنبا بجنب، كما يجب لي أن أبدي مشاعر العرفان والشكر لجميع الأساتذة والأصدقاء الذين تعاونوا في إعداد هذا البحث، وأرجو أن أكون مأمون العواقب طوال هذه الدراسة بتوفيق الله و عونه، وهو العلي العظيم.

ذاكر حسين جمشيد

٢٤٢ إي، برهما پوترا هاستل.

جے - اين - يو -

نيو دلهي - ٦٧

الباب الأول

عصر رفاعة رافع الطهطاوي

الفصل الأول

الحياة السياسية

مرت بالدولة الإسلامية عواصف كادت تذهب بها منذ نشأتها فقد دبّ فيها الخلاف الداخلي في القرون الإسلامية الأولى، ثم ولدت فيها دويلات مزّقت شملها، و انصبّت عليها بعد ذلك ويلات أوربا حين غزتها من الغرب.

انقلب الأوربيون إلى ديارهم بعد أن منوا بالهزيمة في الحروب الصليبية، وقد بهرتهم أنوار الحضارة الإسلامية، وأخذوا معهم مفاتيح تلك الحضارة، فتفرغوا لها يقتبسون من لألآئها، وينقلون أثارها، و يدرسون تواليفها؛ ولقد ساعدتهم عوامل جغرافية وتاريخية وإجتماعية واقتصادية أخرى على أن يسيروا بالحضارة في طورها الجديد على طريقة جديدة تعتمد أكثر ما تعتمد على التفكير الحر أولاً، و على الملاحظة والتجربة والاستقراء ثانيا، فمهد هذا كله لهم السبيل إلى كشوف علمية جديدة كانت هي الطلائع لحضارة القرنين التاسع عشر والعشرين. وكان الأوربيون يفعلون هذا كله في حين كانت الدولة الإسلامية قد اتخذت لنفسها، أو اتخذ لها القدر أسلوباً آخر من الحياة يختلف كل الاختلاف عن هذا الأسلوب الذي اصطنعته أوربا لنفسها أو اصطنعه القدر لها.

بذلت الدولة الإسلامية – وكانت مصر حينذاك مركزها و ضيعتها الغنية و حصنها القوى– جهوداً عنيفة لردّ الصليبيين عن مصر والشام، ولم تكد تنجح في مهمتها

حتى فاجأتها غارات أشد قوة و تدميراً، هي قوة التتار، يغيرون عليها في موجات متلاحقة متدافعة، أحرقت الربوع ودمّرت الآثار، فصمدت لها ووقفت وقفة مذهلة مدهشة و دافعتها حتى دفعتها و دفعت شرها، وحافظت فيها على الدين واللغة والقومية؛ وكان لمصر و حكامها من سلاطين المماليك كذلك الفضل كل الفضل في تدويخ هذه الجموع الهمجية حتى أحست بالدوار، فولت وجهها وجهه أخرى ترضاها بعد أن قبست قبساً جديداً من نور الإسلام هذبها و شذب من وحشيتها.

تلاشت هذه الموجات الصليبية الأوربية والتترية بعد أن بذلت مصر و بذل سلاطينها الجهد كل الجهد، والمال كل المال، في القضاء على هذين الخطرين، لهذا لانعجب إذا لاحظنا بالمقارنة– أن عصر المماليك الثاني ــ وخاصة في أواخره ــ يقل قوة وجاهاً عن عصر المماليك الأول.

ولاعجب أيضاً أن نجد الحركة العلمية في مصر تخمد و تضعف في هذه القرون، فلم يظهر فيها مفكرون جدد، ولا مدارس تفكيرية جديدة، وانتهت العناية بالعلوم في الأزهر والمساجد والمدارس التي كان ينشئها سلاطين المماليك إلى دراسات دينية أو لغوية أو تاريخية، وانتهى جهد العلماء في مصر إلى نظم قصيدة لمدح سلطان إذا انتصر، أو تاريخ حياته إذا مات، أو شرح، أو تفسير، أو تهميش، أو اختصار لأمهات الكتب القديمة في الفقه والتفسير والحديث وغيرها من العلوم الدينية واللغوية. غير أن هناك شيئاً واحداً لم ينسه المصريون في عصر من العصور، ذلك هو شعورهم بأنفسهم، وببلادهم مصر، وبأمجادهم الحضارية خلال العصور، ذلك الشعور كان له أثره الخطير في تاريخ مصر العلمي، فقد دفع المصريون دائماً إلى تاريخ أنفسهم وملوكهم وقضاتهم و علمائهم و مدنهم ومعابدهم ونيلهم وأعيادهم.... الخ.

وكـانت للمصريين من هذا الجهد المتصل سلسلة كتب الخطط وما يكملها من كتب التـاريـخ والتـراجـم، تبـدأ بـكتـاب "فتـوح مـصـر" لابـن عبد الحكم، و تنتهي "بالخطط التـوفيـفية" لـعـلـي مبـارك، و"تقويم النيل" لأمين سامي، و "تاريخ الحركة القومية" لعبد الرحمٰن الرافعي ٠

ولـم يـكـد القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) يوشك أن ينتهى حتى كـان الإعيـاء قد أخذ من مصر كل مأخذ، ولهذا نراها لاتستطيع ان تقف طويلا أمام قوى العثمانيين المتفوقة، وينتهي بها الأمر إلى الخضوع والاستقرار بعض الحين ٠

وكـأنّ الـمـصـريـيـن قد أحسوا الخطر الداهم في ذلك الوقت، فتدافعوا في منافسه عـجيبة– طـوال الـقرن التاسع الهجري– يسعون لجمع ما وصل إليهم من علم، وما كان بيـن أيـديهـم مـن كتـب، فـي موسوعات كبيرة، فتظهر في هذا القرن أسماء لامعة، ونرى الـمـقـريـزي يـكتـب "الـخطط" و "اتعاظ الحنفا" و "السلوك" و عشرات غيرها من الكتب؛ والـقـلـقشـنـدي يـكتب "صبح الأعشى" وابن خلدون يضع تاريخه في مصر، والسيوطي يـجمع مئات الكتب، ثم نجد السخاوي أخيراً يؤرخ لهؤلاء جميعا – و لغيرهم ممن عاشوا فـي هذا القرن– في كتابه "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع" مترسماً خطى أستاذه ابن حجر في كتابه "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" ٠

وكانت مصر قد غابت على أمرها منذ احتلّها العثمانييون في القرن السادس عشر لـلـميـلاد، فـفـقـدت استقلالها، وتحولت ولاية عثمانية على يد السلطان سليم العثماني الـذي فتح مصر سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧م ٠ وهـو قـرن شهـدت البلاد فيه من الظلام والجهل والـضـعف والتـأخـر في كل الميادين مالا يمكن أن يصار إلى أسوأمنه ٠ وما ظنكم بفاتح تـركـي غاشم، دهم البلاد بخيله ورحله، ثم رأى– بعد أن خرج منها مخلفا نائبه عليها– أن يسـلبهـا خيـر مـا فيهـا ٠ فقد روى ابن إياس مؤرخ الحملة العثمانية على مصر "أن بن

عثمان– يعني السلطان سليم– خرج من مصر و صحبته ألف جمل محملة ما بين ذهب و فضة، هذا عدا ما غنمه من التحف والسلاح والصيني والنحاس المكفت والخيول والبغال والجمال وغيرها. ولم يكتف بذلك بل نقل حتى الرخام الفاخر من مساجدها و دورها. ولم تشبع هذه النفائس المصرية نهم الفاتح الناهب، فنقل معه من مصر إلى إستنبول طوائف كثيرة من أرباب الصناعات و أهل الفنون من البنائين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين والخراطين والمهندسين والحجارين ليحي بهم الفن والصناعة في وطنه،، (١).

وإذا كان الوالي العثماني – الذي كان يعينه سلطان تركي على مصر– هو أحد السلطات الثلاث التي كانت تشترك في حكم البلاد و إدارتها، وهي: الوالي نفسه، ورؤساء الجند، والأمراء المماليك، وهي قوام النظام الذي وضعه السلطان سليم لحكم مصر، وللاحتفاظ بها ولاية عثمانية أطول مدة ممكنة. ظلت هذه القوى تتناحر و تتنازع، وكل واحد منها تبذل جهدها لتحقيق غرضين اثنين:

– أن تقوي هئ و أن تضعف القوتين الأخريين.

– أن تبتز من الشعب ما تستطيع ابتزازه من مال لتغني.

وأما الشعب، وأما البلد، وأما نواحي الإصلاح للرقي بالشعب وبالبلد، فقد أهملت جميعاً، حتى سطر التاريخ لهذا العهد صفحة سوداء، وغدت مصر توصف– في هذا العهد العثماني– بالضعف في كل شئ: بالضعف في النواحي الحربية والاقتصادية، وبالضعف في ا لنواحي الصحية والعلمية؛ وخيم على البلاد نوع من الخمود والركود ظل ثلاثة قرون طويلة.

بحث الأستاذ محمد شفيق غربال أسباب هذا الركود بحثا موفقاً في المقدمة التي قدم بها كتاب "الشرق الإسلامي في العصر الحديث" للدكتور حسين مؤنس، ففي قول

القائلين بأن هذا الركود يرجع إلى كون "الحكام العثمانيين من شعب يميل إلى المحافظة بسليقته، فالعثمانييو لم يكونوا من شعب واحد، ولم تكن العثمانية إلا دلالة على الانتما لطائفة الحاكمين، وهذا إلى أن نظم العثمانيين الأولى، وما اختطه سلاطينهم الأول لشؤون الحرب والسياسة كان على جانب عظيم من المرونة والمقدرة،،(٢).

ثم وضع الأستاذ – بعد ذلك– اصبعه على موطن الداء، وسبب ذلك الركود، فقال:

"قد يرجع الركود إلى أن القوة العثمانية حالت بلاشك دون اتصال أهم الدولة بالحضارات الأجنبية عموماً، وبالحضارة الأوربية خصوصاً". ويذكر محمود الشرقاوي عن حكام مصر عند قدوم الحملة الفرنسية فيقول "قد حكم مراد و ابراهيم مصر فترة طويلة. لعلها لم ترفي تاريخها حكما أسوأمنه. ولاحاكمين في مثل قسوتهما، وجبروتهما، وظلمهما، و أنانيتهما، و جهلهما.

وكانت صفات ابراهيم و شخصيته اللينة المتساهلة، كفيلة بإطلاق يد شريكه الطاغية مراد. في أغلب أوقات حكمها الذي دام نحو ثلاثين سنة. وكان لإبراهيم ومراد من النفوذ والسطوة، مالم يتح لغيرهما من المماليك. وكان لابراهيم ستمائة مملوك، ولمراد أربعمائة. وكان ما يملكه غيرهما من كبار المماليك يتراوح ما بين خمسين ومائتين.

ولكن هذه السطوة كلها كانت مسلّطة على أهل مصر. حتى ترك كثير من مالكي الأرض بلادهم، وزروعهم، ومواشيهم، فراراً من الظلم. وكثرت الأوبئة والفتن والمجاعات، وانعدم الأمن، فكان المسافر يستأجر الأعراب لحراسته. وهاجر الفلاحون إلى القاهرة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع، ويأكلون قشر البطيخ، وأوراق الشجر. حتى لايجد الكناسون شيئا من ذلك يكنسونه. وأكل الناس لحوم الأطفال،

والخيل، والحمير، والبغال وكان هذا شأن الناس في القاهرة وغيرها. أما مراد و ابراهيم، فكان يعيشان في قصور زاهرة و بنى أولهما قصراً شامخاً في الجيزة، كما بنى غيره في الروضة، و جزيرة الذهب، والعادلية، وترسا،،(٣).

وكان مراد رجلاً جاهلاً، ضيق الأفق. يأمر بهدم الكنائس. ويفرض على الأجانب ضرائب باهظة. وكانت سياسته الطائشة نحوهم، سبباً، أو ذريعة، اتخذها نابليون للحملة على مصر. وكانت للفرنسيين خاصة متاجرا رابحة، في القاهرة والإسكندرية ورشيد. فأثقل مراد على أصحابها بالمغارم والمظالم، والمصادرات. حتى كثرت شكواهم إلى الدولة في إستنبول، فلم تستطع أن تكف مراداً عن ظلمه لهم. ثم كثرت شكواهم إلى حكومة الجمهورية في باريس. وقد تكون هذه الشكوى متفقا عليها بين هذه الحكومة وبين التجارالفرنسيين، حتى تبرربها الحملة على مصر.

وكانت مصر في نهاية القرن الثامن عشر و مطلع القرن التاسع عشر. وهو ميلاد رفاعة رافع الطهطاوي، مسرحاً للحوادث الجسام.

وبدأ مؤرخ مصر عبدالرحمٰن الجبرتي حديثه عن سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) وهي السنة التي قدمت فيها حملة نابليون، بهذه الفقرات القوية المؤثرة. والتي هي في الوقت نفسه، صادقة كل الصدق: "هي أول سنى الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة. وتضاعف الشرور. وترادف الأمور، وتوالى المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلات الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال وفساد التدبير، وحصول التدمير. وعموم الخراب، وتواتر الأسباب. 'وماكان ربك مهلك القرى بظلم و أهلها مصلحون' "(٤).

نزل بونا برت مصر في أواخر القرن الثامن عشر. فأقام جنده فيها ثلاث سنوات. لم يهدأ في اثنائها بالهم ولم تستقر اقدامهم والحرب قائمة بينهم و بين المصريين أو العثمانيين.

واضطر بونا برت إلى الرحيل عن مصر هرباً من المواجهم والهزيمة، كما اضطرت جيشه إلى الإسحاب في ١٥ /اكتوبر سنة ١٨٠١م٠ وهو اليوم الذي ولد فيه رفاعه الطهطاوي٠

والحق أن حملة نابلييون على مصر، كانت نقطة تحول في تاريخها وكانت ذات أثربالغ في حياة أهلها، ومستقبلهم٠ كما كانت محنة من أشد المحن، التي لقيتها مصر٠

وكانت في مصر القيادة الشعبية التقليدية التي قادت المقاومة ضد الغزو الفرنسي وعبرت عن الإرادة الشعبية فاختارت محمد علي والياً على البلاد سنة ١٨٠٥م٠ وكان السيد عمر مكرم (١٧٥٥–١٨٢٢م)، نقيب الأشراف هو رأس هذه القيادة التي ضمت العديد من شيوخ الأزهر الشريف٠

الفصل الثاني

الحياة الإجتماعية

تقلبت الحياة الاجتماعية في مصر خلال حضاراتها الطويلة على نظم الحياة المختلفة، فأخذت بأساليب الأمم المختلفة في كثير من جوانبها، و تحلّت بألوان العيش الرافهة على العصور، ولكنها عاشت فيما يبدو على طبقات اجتماعية متباينة: فيها السلطان والأمراء والوزراء والوجهاء و عامة الشعب. ونبهت الحملة الفرنسية المصريين إلى عالم اجتماعي جديد بما نقله أعضاء الحملة معهم من عادات ومظاهر اجتماعية في الملبس والمشرب والمأكل وفي غير ذلك من مجال الحياة اليومية و مباهجها كانت كلها أموراً جديدة في حياة المصريين لم تلبث أن تسرّبت إلى عاداتهم تقاليدهم.

ولد رفاعة الطهطاوي في سنة ١٨٠١م وهي السنة التي جلت فيها الحملة الفرنسية عن مصر– وتوفي سنة ١٨٧٣م في أواخر عهد اسماعيل، أى أنه عاصرالأحداث التي توالت على مصر خلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر.

ولقد انتقلت مصر، والشرق الأدنى العربي، في القرن التاسع عشر من عصر إلى عصر، ومن حالة إلى حالة. انتقلت من عصر وسيط مظلم إلى عصر نهضة وإحياء، ومن ولاية تابعة للدولة العثمانية إلى دولة مستقلة، وكان للحياة الاجتماعية في مصر على العصر الأول صورة مميزة، شرقية في كل شئ، في مناظرها وألوانها وفي أضوائها وظلالها.

وكانت سياسة الدولة العثمانية تهدف إلى أن تبعد ما استطاعت عن طريقة الحكم المباشر، فلم تكن ترسم للناس سياسة معينة أو محددة للتعليم أو الزراعة أو الشؤون الصحية، بل كانت تترك الناس يعالجون مشاكلهم في هذه النواحي جميعا بالطريقة التي يؤثرون، و كان يكفيها منهم أن يدينوا لها بالولاء.

وكان لهذه الطريقة من طرق الحكم آثار جد خطيرة، لعل أبرزها إهمال مرافق البلاد إهمالاشائناً، وذلك لأن الحكومة لم تكن لها سياسة عامة مرسومة تعمل دواوينها المختلفة على تنفيذها.

وكانت السلطة في نفس الوقت موزعة بين هيئات مختلفة تسعى كل هيئة منها جاهدة أن تستأثر وحدها بالسلطة، وأن تقوي هي وأن تعمل على إضعاف الهيئات الأخرى، ففي القلعة يقيم الوالي أو الباشا العثماني، وفي الأقاليم يستبد بالأمور بكوات المماليك، وعلى حواشي الوادي تقيم عصابات العربان، وبين هذه القوى جميعا كانت مصالح الشعب مهدرة مضيعة.

ووصف الرحالة فولني حالة الفلاح بقوله: "الفلاحون آلات مأجورة، لايترك لهم للمعاش إلا ما يقيهم الموت، وما يحصدونه من أرز وحنطة يذهب إلى موائد ساداتهم، على حين يحتفظون لأنفسهم بالذرة ويصنعون منها خبزاً بلا خمير، لا طعم له إذا كان بارداً، يخبزونه في ملة وقودها من روث الأبقار والجواميس فهذا الخبز مضافاً إلى الماء والبصل الأخضر هو طعامهم طول العام. ويحسبون سعداء إذا تخلل طعامهم هذا شئ من العسل والجبن واللبن الرائب. أما اللحم والدهن فلايعرفونها إلا في الأعياد والمواسم الكبرى وفي بيوت أهل السعة منهم،، (١).

أما أرباب الصناعة في المجتمع المصري فكانوا – على مهارتهم في بعض الصناعات – على حال من الضنك بما يفرضه الحكام عليهم دائماً من الإتاوات والغرامات

التي كان يجمعها "شيخ الطائفة" ويوردها إلى الحكومة. ولقد أساء السلطان سليم بما فعله عند خروجه من مصر من نقل أمهر الصناع وأسباب الفنون إلى الأستانة، فقد كسدت بذلك سوق الصناعة في البلاد، وبقي على الزمن في خلال الثلاثة القرون من الحكم العثماني بعض الصناعات الدقيقة كصناعة البسط والأكلمة، والتطريز التي كان يعجب بها الأجانب ويتهافتون على شرائها و خاصة تطريز الحرير والجوخ والموسلين، وتطريز الجلود بأسلاك الذهب والفضة، وصناعة الكردون والشراريب من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة التي اشتهربها العقادون، وصناعة الخراطة التي قام بها الخراطون في عمل النوافذ والأبواب والشبابيك، والمشربيات والمنابر والحواجز، وصياغة المعادن وخرط الكهرمان والعاج.

أما الصناعات الآلية الدقيقة فلم يكن من أهل البلاد من يعرفها، وقد زار مصر في أواخر القرن الثامن عشر فوسنى الفيلسوف الفرنسي فأدهشه ما رآه فيها من التأخر والفساد، وهذا قوله عنها: "الجهل عام في هذه البلاد مثل سائر تركي وهو يتناول كل الطبقات ويتجلى في كل العوامل الأدبية والطبيعية وفي الفنون الجميلة. حتى الصناعات اليدوية فانها في أبسط أحوالها. ويندر أن تجد في القاهرة من يصلح الساعة، وإذا وجد فهو افرنجي. أما الصياغة فأصحابها فيها أكثر مما في أزمير و حلب لكنهم جهلاء. وانما يتقنون المنسوجات الحريرة و ان كانت أقل اتقانا من صنع أوربا وأعلى ثمنا،،(٢).

على أن ذلك لم يمنع من قيام صناعات أخرى تتصل بمواد التغذية، والملبس، وحركة العمارة والتشييد، كطحن الحبوب، وضرب الأرز وتبييضه، وطحن اللبن، وعصر الزيوت، واستقطار ماء الورد وما إليه، واشتيار العسل، وصنع الفطائر، و غزل القطن والكتان الصوف ونسجها، ونسج الحرير، ونحت الأحجار و صنع البلاط، وتنجيد الأثاث، وعمل المسابح، وسك النقود.

وإن الجهل والتسليم الناقص بالقضاء والقدر في المجتمع المصري كانا من أهم العوامل في انتشار الأوبئة والعلل بصورة مزعجة. حتى كان مئات الألوف من النفوس تتعرض للموت في حالات الوباء. ويصف محمد عبده حال عامة المصريين في ذلك العهد: "كان أهالي بلادنا محملين من الأثقال النقدية ما لايطيقون من ضرائب على الأراضي متنوعة متكثرة، تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام، وغرائم تفرض على الأنفس وتوابعها من غير نظام، لاتنتهي عند غاية، ولاتقف عند حد، حتى بلغت نهاية ما يستطيعون معها الأداء لشئ مما فرض عليهم، ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم، وقت معين، ولاقاعدة معروفة، بل كان ذلك على حسب اشتهاء الحاكم وإرادته غير المرتبة، فتارة يجيرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها في أول شهر منها وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة، ولامحيص لهم عن الأداء، فإن من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك، والحبس المؤبد، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً، وما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة"(٣).

وكان الفلاحون يعانون في سبيل العيش، والاحتفاظ بأرضهم ما يعانون من ضرائب، وسخرة، وجلد، وظلم دائم، كانت الطبقة الحاكمة من أبناء الشراكسة والأتراك تتمتع بكل خيرات البلاد، وتستنزف دماء هؤلاء الفلاحين، وتبذر الأموال في سفه وطيش.

ومع هذا فقد بقيت مصر طوال العصر العثماني منطوية على نفسها مقللة النوافذ والأبواب، وكانت العلاقات بينها وبين العالم الخارجي – وخاصة أوربا– مقطوعة مبتوتة، فلو أن الحكومات المشرفة على مصر عملت على النهوض بها داخليا خلال هذه المدة لهان الخطب، ولكن زاد الطين بلة أن هذه العزلة صحبها ركود واضمحلال في كافة شؤون مصر الداخلية الحربية كانت أم ثقافية أم اقتصادية أم اجتماعية.

ولم يكد يشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى كان الغرب قد ضاق ذرعاً بهذه العزلة التي تقبع فيها بلدان الشرق الأدنى – ومصر بوجه خاص – ولم يشأ هذا الغرب الأوربي أن يسلك السبيل السوى فيدعو مصر إلى أن تقطع حبل هذه العزلة، وإلى أن تفتح الأبواب والنوافذ كى تمسح لأضواء الحضارة الأوربية الجديدة بالدخول والانتشار، ولكنه آثر أن يقوم هو بفتح هذه الأبواب والنوافذ، وبالقوة، قوة السلاح، فقد كانت تدفعه عوامل الإستعمار، عوامل الأثرة والإستغلال، مما أثار قوي المقاومة الداخلية، وقوى المنافسة الخارجية وبهذا اضطرت جيوش الفرنسيين إلى الجلاء عن مصر بعد أن قضت في ربوعها سنوات ثلاثاً لم تذق في خلالها طعم الراحة يوماً واحداً.

وهكذا استيقظت مصر من سباتها الماضي الطويل العميق ولكن يقظتها لم تكن تلقائية رفيقة، بل كانت يقظة عنيفة مفاجئة دفعت إليها دفعاً، وكانت الأضواء التي حملها الفرنسيون – أضواء السلاح والحضارة والعلم والمجتمع الجديد – قوية براقة، كادت تفشي على عيون المصريين، ولم يتمالك كبير من علمائهم وهو المؤرخ المعروف عبد الرحمن الجبرتي – أن يعصر عنها حين زار مكتبة غربية، ينتج منها نتائج لاتسنها عقول أمثالنا". وشهدت مصر في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر صراعاً عنيفا بين قوى ثلاث : الأتراك والمماليك والإنجليز، كل منها تعمل لحسابها، وتمهد السبيل كى تفوز هي و تصبح لها السيطرة على مصر وشعبها وشؤونها، ووسط هذا الضباب الكثيف ووسط هذا العشير المتطاير نتيجة لصراع هذه القوى الأجنبية الثلاث بدأت تظهر قوة جديدة ظلت كامنة قرابة ثلاث قرون، تلك هي قوة الشعب المصري. وأدرك الحكام الذين توالوا على عرش مصر في القرن التاسع عشر أنه لابد من رسم سياسة إصلاحية جديدة لانتشال الكنانة من هذه الخراب والفساد التي تردت فيها طوال العصر العثماني، ورأوا أن السبيل القويم للإصلاح هو الاتجاه نحو الغرب والاقتباس من نظمه والنقل من

علومه، وخطوا نحو تنفيذ هذه السياسة الإصلاحية خطوات مختلفة، فبدأوا باستخدام الأجانب والاستعانة بهم ثم قفوا بإرسال المصريين في بعثات إلى أوربا، وأنشأوا المدارس الجديدة في مصر على النظام الأوربي.

وكان رفاعة واحداً من المبعوثين إلى أوربا، نشأ في قلب الصعيد وتعلم في الأزهر، فلما وصل إلى فرنسا شُده لمظاهر الحياة الاجتماعية التي شاهدها هناك فقد كانت تختلف اختلافاً كلياً عن مظاهر الحياة الاجتماعية التي ألفها في مصر، فإذا كان المصريون يجلسون على الأرض ويتجمعون عند الأكل حول طاولة أو كرسي فوقه صينية، و يتناولون الطعام جميعا من إناء واحد بأيديهم فإن الفرنسيين يجلسون على كراسي وأمامهم مائدة ولكل منهم طبقه و قدحه و يستعملون الشوكة والسكينة والملعقة، وإذا كان للمنزل المصري نظامه الخاص من جناح خاص بالسيدات وهو "الحرملك" و جناح خاص بالرجال هو "السلاملك" وإذا كانت الحالة الاجتماعية لاتسمح للجنسين بالاختلاط، بل تقسر المرأة على الإقامة دائماً في المنزل ولاتخرج منه إذا خرجت إلا محجبة. ولايسمح لها أن تتردد على المجتمعات أو دورالعلم أو أن تشارك الرجل في العمل أو المناقشة، إذا كان هذا حال المنزل والمجتمع في مصر، فإن المنزل في فرنسا له نظام مختلف، والمرأة فيه وفي المجتمع المكانة الأولى، يحترمها الرجل و يفسح لها في الطريق أمامه، ولا يجلس إلا إذا جلست، وهي تشترك وإياه على قدم المساواة في العمل وفي معاهد العلم وفي الحلقات الاجتماعية وفي المناقشة وهكذا الحال في الشوارع والحدائق والمنتزهات والمقاهي ودورالعلم، فالصورة غير الصورة، والنظم غير النظم مما دفع رفاعه الطهطاوي إلى أن يرسم صورما رأى في فرنسا في رحلته "تخليص الابرنر إلى تلخيص باريز" و أن يعقد دائماً المقارنة بين ما رأى هناك وما ألف في مصر، ناقداً مرة، وموافقاً مرة أخرى.

وعاد رفاعة رافع الطهطاوي وغيره من المبعوثين المصريين إلى مصر وحاولوا أن ينقلوا إلى المجتمع المصري بعض المظاهر الطيبة مما رأوا في أوربا، وحاولت حكومات مصر في القرن التاسع عشر وهي تعمل على تنفيذ سياستها الإصلاحية أن تنقل إلى مصر بعض المظاهر الأخرى للحياة الاجتماعية في الغرب، وتوافد على مصر في القرن نفسه عدد كبير من الأوربيين ممن استعانت بهم الحكومة لتنفيذ إصلاحاتها أو ممن أتوا يلتمسون أبواب الرزق، وهؤلاء نقلوا معهم مظاهر الحياة الاجتماعية في الغرب، وكان وجودهم دافعاً للمصريين إلى محاكاتهم.

وقف المصريون أول الأمر من هذا اللون من الحياة الاجتماعية موقف الكارة، ونقلوا عنها في حذر، ولكنها لم تلبث أن اقتحمت عليهم حياتهم، ففتحت في القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى الشوارع الجديدة الواسعة، وبنيت المنازل على النمط الأوربي، وأنشئت المدارس والحدائق والمتاحف ومعاهد العلم على النظام الغربي، واقتبس المصريون نظم المائدة والمأكل والمشرب والملبس عن الأوربيين، وبدأت المرأة المصرية تتخفف من الحجاب شيئا فشيئاً، وعرفت مصر الجريدة والمجلة والمسرح والمطبعة.

ورفاعة رافع الطهطاوي هو أول من نادى بتعليم المرأة وتثقيفها في مصر، بل في الشرق العربي كله، و وضع كتابا مشتركا لتثقيف البنات والبنين على السواء، وسماه : "المرشد الأمين للبنات والبنين" وهو كتاب في الأخلاق والتربية والآداب بل دعا إلى اشتراك المرأة في أعمال الرجال على قدر طاقتها، و يقول في هذا "ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً.. فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك؛ فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلاً ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأى فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن، وليكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن

تتعاطي من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها و طاقتها، فكل ما يطيقه النساء عن البطالة فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل، وقلوبهن بالأهواء، وافتعال الأقاويل، فالعمل يصون المرأة عما لايليق، ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة فيحق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء،،(٤).

وقد طبع كتابه هذا في سنة ١٨٧٣م، وأسست أول مدرسة لتعليم البنات في مصر سنة ١٨٨٢م، أسستها إحدى زوجات إسماعيل على أن دعوة رفاعة إلى تعليم المرأة والنهوض بها ترجع إلى ما قبل هذا بكثير، ولكن لم يستجب لدعوته أحد، وكان تعليم المرأة قاصراً على الأساتذة الخصوصيين، إلى أن وجدت دعوته من يلبيها و يعمل على تنفيذها.

لقد ظهر في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين رجال أفذاذ كانوا روادّالحركات الإصلاحية في الحياتين الفكرية والاجتماعية، وقد أهلهم لهذه المنزلة أنهم جمعوا بين الثقافة العربية الشرقية الأصيلة و بين الثقافة الغربية الأوربية الحديثة، وكان رفاعة رافع الطهطاوي أول نموذج لهؤلاء الروادّ.

الفصل الثالث

الحياة العقلية والثقافية

ظلت مصر و بلاد العروبة زهاء ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك والمماليك، وهي في ظلام دامس، وجهل فاضح، تعاني مرارة الظلم، وقسوة الحرمان: فقد حرمها الأتراك أغلى كنوزها، فنقلوا كثيراً من العلماء والأدباء والأمراء، والمهندسين، والورّاقين، وأرباب الحرف إلى بلادهم، كما نقلوا أكثر الكتب التي كانت بخزائن المدارس، ونهبوا أموال الأوقاف التي كانت محبوسة على العلماء، وطلبة العلم، فتفرق الطلاب، وانفضت سوق العلم، ولم يبق منه إلا ذماء يسير بالأزهر.

ومن البديهي أن اللغة العربية لم تجد في هذا العصر المظلم من يشد أزرها، ويثيب الشعراء والكتاب المحتفين بها: لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية في الدواوين، وفشت على ألسنة الناس، ولأن الحكام لايفقهون العربية، ولايقدرونها قدرها، ولايميزون بين الجيد والغث من الكلام حتى يلجأ إليهم الشعراء مادحين.

وكانت العلوم الأخرى التي عرفها العرب باسم "العلوم الفلسفة" أو "علوم الأوائل"، مثل الفلسفة والرياضيات والفلك قد أصابها الركود والجمود والقنصل الروسي في القاهرة– "دوهاميل"– يتحدث في تقريره الذي كتبه عن حالة اللبلاد عندما تولى الحكم فيها محمد علي– ١٨٠٥م– أى بعد ولادة الطهطاوي بأربع سنوات– يتحدث "دوهاميل" لاعن الفن والعلم والأدب والصناعة، كما صنع "فولني" بل عن الذين بلغوا

من العلم" مرتبة "القراءة والكتابة"!! فيقول : "إن مصرحين وليها محمد على لم يكن بها أكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة، باستثناء الكتبة من القبط"(١).

كما يتحدث "بورنج" في تقريره عن التجارة في بلاد الشام، فيذكر أنه "لم يكن في دمشق أو حلب بائع واحد للكتب"(٢).

وحتى هذا الأزهر، لم يكن في القرن الثامن عشر في حالة طيبة مبشرة بل شلمته موجة من الركود والجمود، وقد وصف مؤرخ مصر في هذا القرن عبد الرحمٰن الجبرتي مدى ما وصلت إليه الحالة العلمية من تأخر وصفا يعني عن غيره من أقوال الرحالة الأوربيين.

ذكر الجبرتي أن احمد باشا الوالي التركي على مصر (١١٦٢-١١٦٣هـ/ ١٧٤٩-١٧٥٠م) كان "من أرباب الفضائل وله رغبة في العلوم الرياضية، ولما وصل إلى مصر، واستقر بالقلعة، وقابله صدور العلماء في ذلك الوقت، وهم الشيخ عبد الله الشبراوي- شيخ الجامع الأزهر-، والشيخ سالم النفراوي، والشيخ سليمان المَنصوري، فتكلم معهم وناقشهم، وباحثهم، ثم تكلم معهم في الرياضيات، بأحجموا، وقالوا: "لانعرف هذه العلوم" فتعجب وسكت".

ثم ذكر الجبرتي أن الشيخ الشبراوي طلع على عادته إلى القلعة في يوم جمعة، واستأذن، و دخل عند الباشا يحادثه، فقال له الباشا: "المسموع عندنا في الديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت في غاية الشوق إلى المجيئ إليها، فلما جائتها وجدتها كما قيل: " تسمع بالمعيدي خير من أن تراه"، فقال له الشيخ: "هي يامونانا- كما سمعتم- معدن العلوم والمعارف"، فقال: "وأين هي؟ وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ونبذتم المقاصد"، فقال له: "نحن لسنا أعظم علمائها، وإنما

نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام، وغالب أهل الأزهر لايشتغلون بشئ من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث، كعلم الحساب والغبار"، فقال له: "وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم والأهلية، وغير ذلك" فقال: "نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط و آلات وصناعات وأمورذوقية، كرقة الطبيعة، وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل، والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك"، فقال: "وأين البعض؟"، فقال: "موجودون في بيوتهم يسعى إليهم" ثم أخبره عن الشيخ الوالد (يقصده والده الشيخ حسن الجبرتي العالم الرياض الفلكي الكبير في ذلك الحين) وعرفه عنه وأطنب في ذكره".

ثم ذكر الجبرتي بعد ذلك أن الباشا أرسل إلى الشيخ حسن الجبرتي فاستدعاه لمقابلته وأنه سربرؤياه واغتبط به كثيراً. وكان يتردد إليه يومين في الجمعة وهما السبت والاربعاء، وأدرك منه مأموله وواصله بالبر والاكرام الزائد الكثير، ولازم المطالعة عليه مدة ولايته. وكان يقول: "لو لم أغنم من مصر إلااجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني".

وأخيراً يختتم الجبرتي قصة والده وعلماء مصر مع الباشا بجملة لطيفة فيها نقد ساخر لاذع. فيقول: "وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوي كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له: "سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا. فإنه لولا وجودك كنا جميعا عنده حميراً"،(٣).

ولم يكن الانتاج الأدبي في هذا العصر يفضل كثيراً الانتاج العلمي، فقد بلغ الأدب أقصى مراحل التأخر أسلوباً ومنهجا وموضوعاً، وقد يعلل البعض تأخر الأدب إلى

انصراف الناس إلى الدراسات الدينية والصوفية، ولكن هذا الانصراف لاينهض وحده سبباً كافياً، بل هناك في الحقيقة أسباب أخرى حالت دون ظهور أدباء ممتازين أو انتاج أدبي رفيع مبتكر، ولعل أهم هذه الأسباب أن أدباء العرب في هذا العصر قد فقدوا رعاية الحكام والرؤساء إلا في حالات قليلة نادرة منذ انضمت البلاد العربية للدولة العثمانية، وهذا النوع من الأدب الرفيع لايزدهر إلا إذا نال صاحبه شيئا من التشجيع والرعاية.

وكان لانقطاع الصلة بين البلاد العربية والعالم الخارجي أثر واضح كذلك في تأخر الأدب في هذا العصر، فقد فقدت الدراسات الأدبية الدوافع المثيرة والنقد المفيد، ولم تتح لها فرصة الاتصال بين الأفكار أو المحاكاة أوالمقارنة بينها وبين الآداب الأخرى، فانكمش الأدباء العرب على أنفسهم وعاشوا في عزلة تامة داخل ديارهم.

الصلة بين الشرق والغرب

لم تنقطع الصلات بين الشرق والغرب– حرباً وسلماً– منذ ظهر الإسلام، وكانت الحروب الصليبية أبرز صورهذه العلاقات، ولكن معاركها الحربية انتهت بإخراج صليبي أوربا من بلدان الشرق الإسلامي، فعادوا إلى قارتهم وهم يشدون شجاعة الشرق وقوته وتفوقه؛ ثم شغلت أوربا منذ ذلك الحين بنهضتها وحربها القومية الداخلية قروناً، وشغل الشرق بالمغول حيناً، وبنفسه حيناً أخر؛ كل ذلك والصلة تضعف شيئاً فشيئاً، ولكنها لم تنقطع، فقد ظلت السفن تنقل التجارة بين الشرق والغرب– عبرمصر والشام– طول عطر المماليك، فكانت تجلب معها إلى موانئ مصر والشام التجار الغربيين، وكانت تقيم منهم جاليات في هذه الموانئ، وكان يقيم مع هذه الجاليات قناصل يرعون مصالح دولهم التجارية، وكانت المعاهدات والاتفاقات التجارية تعقد بين حكام مصر والشام من المماليك، وبين ملوك ودوقات هذه الدولى الأوربية، وكانت مصر

أخيراً حريصة الحرص كله– طول عهد المماليك– على أن تبقى هذه العلاقة قوية وثيقة، فهي المنبع الذي يدر عليها المال الوافر؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن الصلة العلمية بين مصر والغرب في ذلك العهد لم تكن ذات أثر فعّال، إذ لم يكن لدى مصر وقتذاك علم جديد تقدمه وتزجيه، ولم يكن الوافدون عليها من تجار أوربا ممن يعنون بنقل العلوم، ولم تكن أوربا قد خطت بعد– حتى الفتح العثماني لمصر سنة ١٥١٧م– في سبيل نهضتها الجديدة الخطوات المجيدة.

وجاء الفتح العثماني فحجب مصر وبلدان الشرق عن الاتصال بالغرب، وعاصره أيضاً كشف الغربيين لطريق رأس الرجاء الصالح، فتحولت التجارة وتحول الخير معها عن مصر، وهكذا انقطع الخيط الأخير من الصلات التي كانت تربط بين مصر و دول أوربا، فبدأت مصر عهداً غريبا من الرهبنة أو التصوف أو الدروشة، ساعدها عليه كثرة ما أنشئ بها على ذلك العهد من خوانق وربط وزوايا و تكايا، وتسيطر على عقول الجماهير جماعات من المشعوذين ومدعى الولاية، فشاعت الخرافات والترهات، وأصبح الإيمان بالمعجزات يقوم عند الشعب بل عند العلماء مقام الدين.

وهكذا تم لمصر– وهي زعيمة الشرق ـ كل عوامل الضعف: فقد ضعفت حربيا بتملك العثمانيين لها، وضعفت اقتصادياً بتحول التجارة عنها، وضعفت علميا وروحيا بسيطرة أفكارالتصوف والدروشة على عقول أهليها.

ويقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه "الشرق الإسلامي في العصر الحديث"، وكانت أوربا– حتى أواخر القرن الثامن عشر– لاتزال تحفظ للشرق الإسلامي الشئ الكثير من الاحترام، لأنها لم تنس بعد بأس الشديد في الحروب الصليبية وفتوحات الأتراك، ولكن نفراً من السائحين بدأ يدخل الشرق، ويطوف به، ويتأمل أحواله، فيزداد عجباً، ثم يمضي إلى قومه فيتحدث إليهم عما رأى من انحطاط المجموعة الإسلامية

Jawaharlal Nehru University Library

H-H-1954

وضعفها البالغ، فبدأ الأوروبيون يشكون في قوة الشرق الإسلامي، وبدأت هيبته تسقط من أعينهم، وفكروا في استعمال طريق البحر الأبيض من جديد"(٤).

ولهذا بدأت دول أوربا– وخاصة فرنسا– تفكر تفكيراً جديداً في غزو هذا الشرق الضعيف، وكانت نتيجة هذا التفكير الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م، يقودها القائد الشاب المغامر "نابليون بونابرت".

الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م وأثره

نزلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونا برت في مصر سنة ١٧٩٨م، ونجحت من الناحية الحربية، ولكنه كان نجاحا وقتياً لم يلبث أن انكشف عن صعوبات جديدة، وكانت أهمها مقاومة الشعب المصري، وظلت الحملة الفرنسية سنوات ثلاثاً تناضل نضالاً عنيفاً حتى عجزت فخضعت ثم ارتدت عن البلاد.

فهبت مصر بعد الحملة الفرنسية من سباتها العميق فزعة مذعورة، وأخذت تقلب الطرف دهشة في هذه الجيوش العجيبة، والوجوه الغربية، وعرفت أن ثمة دنيا أخرى حافلة بالعلم والحضارة والثقافة والمال والقوة غير ذلك الأشراك والمماليك وما فيها من جهل وضعف وذلة وانحلال. واصطحب نابليون معه كل عدد الاستعمار والاستغلال والايقاظ، فأنشأ مسرحا للتمثيل، ومدارس لأولاد الفرنسيين، وجريدتين، ومصانع، معملا للورق، ومطبعة، ومراصد فلكية، وأماكن للأبحاث الرياضية، ومكتبة عامة وقد جمعت بعض كتبها من المساجد والأضرحة، وأنشأ المجمع العلمي المصري على نظام المجمع العلمي الفرنسي، وقد أفاد هذا المجمع مصر والتاريخ بآثاره و أعمال رجاله، وصارت أبحاثهم هي النواة الأولى لكل بحث خاص بمصر، ولابدع إذا ظل المجمع العلمي هو الأثر الباقي حتى اليوم من آثار حملة نابليون، وذلك لجليل فائدته ، وهذا ما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن حملة نابليون على مصر كانت علمية أكثر منها حربية.

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضتها الحملة الفرنسية بمصر، فقد تركت بها أثراً لايمحى، وظل المصريون ردحاً طويلاً من الزمن يعجبون بنابليون بعد خروجه من ديارهم.

ويقول الاستاذ عمر الدسوقي "وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر، وظلت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المتنيرة بمصر، وإن ما خلفته الحملة الفرنسية في مصر خلال ثلاثة أعوام لاغير لمن أضخم ما يتسنى إنجازه في هذا الأمد الوجيز" (٥).

ثم أتيحت لمصر الفرصة في أن تواصل أمد اليقظة التي ابتدأت على يد نابليون، و رأت أنه لايستقيم لها الأمر إلا إذا كانت تحت إمرتها جيش قوي، وكان وراء ه شعب ناهض، فوضعت أسساً متينةً لنهضة شاملة في الجيس والضاعة والزراعة والتعليم والإدارة، حتى يكون البعث عاماً يدفع بعضه بعضاً. وقد وجدت مصر أن خير وسيلة تنهض بالشعب وترفعه إلى مستوى الأمم الناهضة هي الاهتمام بالتعليم: فسلكت في تعليم الشعب كل الطرق الناجحة: فمن بعثات، وطباعة، وفتح مدارس، ونقل آثار الأمم الغربية في العلوم والآداب، وتأسيس الصحافة لتنير الحياة أمام الأمة.

توالت البعثات إلى أوربا وكانت إحدى عشرة بعثة آخرها سنة ١٨٤٦م للتخصص في شتى العلوم والفنون: من حقوق، وعلوم سياسة، وهندسة حربية، وطب، وزراعة، وكيمياء، وطباعة، وحفر، وغير ذلك مما استلزمته النهضة الحديثة. ولقد كان لهذه البعثات أثر بالغ في تقدم مصر، ونهضتها وإرسال نور العلم دافقاً قويّاً في ربوعها، كما كان لها أعظم الفضل في إحياء اللغة، وجعلها مسايرة بعض الشئ للعلم الحديث، بما ترجمه أعضاؤها من كتب، وما أدخلوه من مصطلحات، وما ألفوه في شتى نواحي العلم: ومن أشهر هؤلاء الشيخ رفاعة الطهطاوي، الذي ذهب إلى فرنسا إماماً للبعث عام ١٨٢٦م

ولكن نفسه الطموح دفعته لدراسة الفرنسية وإتقانها، وعني بكتب الفلسفة والأدب والتاريخ والجغرافيا، وترجم وهو في باريس كتابه "قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر" . وهو أول من كتب من المصريين في المباحث الدستورية، مع أن هذه المباحث كانت مجهولة في تاريخ مصر القومي، وعرّب في كتابه "تخليص الإبريز" دستور فرنسا في ذلك الحين، وما تضمنه من نظام المجلسين، وحقوق الأمة أفراداً وجماعات، وهو الذي أشار بإنشاء مدرسة الألسن، وفيها تخرج على يديه صفوة من العلماء المترجمين الذين ملئوا مصر علماً هم وتلاميذهم حتى بلغ ما ترجموه زهاء ألفى كتاب . وهو أول من كتب في المسائل الوطنية والقومية، وواجب المواطن الصالح، وترجم رواية تليماك وهي أول رواية تنقل إلى الأدب العربي الحديث .

وعنيت النهضة بالطباعة فأسست مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢م، ولما كان اتجاه مصر في ذلك الوقت حربيا علميا فإن مطبعة بولاق لم تعن في أول الأمر إلا بالكتب العلمية، والكتب المترجمة التي يقدمها أعضاء البعثات العائدون إلى مصر، ولم تهتم بالكتب الأدبية إلا في عصر اسماعيل .

أما الصحافة فقد وضعت النواة الأولى لها بإنشاء الوقائع المصرية، واختيار أفاضل العلماء والكتاب لها .

ثم أنشأت عدة مدارس عليا كالطب والصيدلة والهندسة، وجلب لها كبار الأساتذة من فرنسا، ولكن العناية الكبرى كانت موجهة للجيش وتقويته، وإنشاء المدارس التي تعنى به و تقوم على خدمته، ولم تلتفت مصر للأدب أدنى التفاتة، وذلك لأن مصر لم تكن بحاجة للأدب حاجتها إلى جيش قوي تدعم به عرشها، وتؤسس دولتها، فكان كل شئ في مصر، وكل البعثات من طبية و هندسية وصناعية وغيرها ترمى إلى خدمة الجيش ورجاله .

ويقول الأستاذ عمر الدسوقى "ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساسا للنهضة العلمية الأدبية التي ظهرت فيما بعد، فالمدارس التي فتحت في مستهل النهضة، والكتب التي ترجمت، والبعثات التي تزودت من علوم أوربا واطلعت على حضارتها، أسهمت كلها في الوثبة التالية وساعدت على نجاحها"(٦).

على أن ركب النهضة لم يواصل سيره، بل أصيبت مصر بنكسة سنة ١٨٤٩م على يدى عباس الأول وسعيد كادت ترجع بمصر القهقري إلى عصور الظلمات، إذ كانا من دعاة الرجعية، فألغى عباس حين توليته كل المدارس العالية إلا المدرسة الحربية، وعطل الوقائع المصرية، وأغلقت المصانع ووقف البعثات، وظلت مصر تعاني من هذه النكسة ما تعاني حتى سنة ١٨٦٣م حينما جاء إسماعيل، وليس إلا مدرسة ابتدائية واحدة، ومدرسة حربية، وأخرى طبية، وثالثة للصيدلة، فاستأنفت مصر نهضتها وأعادت للبعثات سيرتها الأولى، وأخذت الحياة تدب إلى كل نواحى التعليم فأعيدت المدارس العالية التي كانت في عهد محمد علي؛ كالهندسة والطب، وزيد عليها مدرسة الحقوق، وكانت تسمى مدرسة "الإدارة الألسن" و في ذلك العهد أنشئت دار العلوم ينشّأ فيها الطلبة تنشئة لغوية و أدبية و شرعية مع قسط وافر من العلوم الحديثة وطرق التربية، وقد كان لها أثر بالغ في إحياء اللغة وتجديد أساليبها، فنفضت عن تراثها المجيد غبار القرون، وقدمته للناس رائعاً جذاباً وعكف أبناؤها على تعليم النشء، و تقويم ألسنتهم، وتدريب أقلامهم، وتقديم الكتب التي تنهج نهجا علميا نفسيا، ولاتزال حتى اليوم تقوم بنصيبها الوافي في نهضة التعليم واللغة. وفي هذا العهد أنشئت أول مدرسة للبنات سنة ١٨٧٣م، وهي مدرسة السيوفية، وأنشئت عدة مدارس ثانوية وابتدائية للبنين. ومن الوسائل التي ساعدت على النهضة الأدبية والعلمية في ذلك العصر "دار الكتب" وكثرت الجمعيات العلمية، وكثرتها دليل على حيوية الأمة ويقظها في السير نحو الكمال.

المصادر والمراجع

الفصل الأول

الحياة السياسية

(١) حسن العطار — محمد عبد الغني حسن — صـ٥٠

(٢) الشرق الإسلامي في العصر الحديث — حسين مؤنس — صـ هـ

(٣) مصر في القرن الثامن عشر الجزء الثالث — محمود الشرقاوي — صـ ٣٣-٣٤

(٤) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار — للجبرتي ج ٢ — صـ ١٧٩

الفصل الثاني

الحياة الإجتماعية

(١) حسن العطار — محمد عبد الغني حسن — صـ ١٠

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية — جرجي زيدان ج ٤ — صـ ٣٦٦

(٣) "تاريخ الشيخ محمد عبده" ج ٧٢ نقلاً عن
محمود سامي البارودي — عمر الدسوقي — صـ ١٨

(٤) المرشد الأمين للبنات والبنين — رفاعة رافع الطهطاوي
نقلاً عن في الأدب الحديث ج ١ — عمر الدسوقي — صـ ٤٤

الفصل الثالث

الحياة العقلية والثقافية

(١) رفاعة الطهطاوي — حسين فوزي النجار — صـ ٢٩

(٢) المرجع السابق — صـ ٢٩

(٣) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار — للجبرتي جـ ١ — صـ ٢٧٦–٢٧٧

(٤) الشرق الإسلامي في العصر الحديث — جسين مؤنس — صـ ٣٦

(٥) محمود سامي البارودي — عمر الدسوقي — صـ ١٠

(٦) نفس المصدر — صـ ١٢

(٧) عصر اسماعيل — عبد الرحمٰن الرافعي جـ ١ — صـ ٢٥٦

الباب الثاني

رفاعة رافع الطهطاوي في عصره

الفصل الأول

حياته و فكرته الإجتماعية

موجز حياته

هـو إمـام الـنهـضة الـعلمية والأدبية في مصر الحديثة، وهبه الله لمصر كي يزودها بـنـور الـعـلـم، فـكـان مشـعـلا سـاطعا بدّد الجهل وسدفته، وأنار الطريق لآلاف العقول والقلوب ووضع اللبنات الأولى القوية في صرح ثقافتنا الحديثة .

أوتـي القلب الذكي، والعقل الصافي، والنشاط الموفور، البصيرة النفاذة، والعزيمة المبـرمة فـمـا أضـاع سـاعة مـنذ وضع رجليه على سلم الباخرة التي أقلته إلى فرنسا إلا و أمامه الهدف الذي رسمه لنفسه ولوطنه، وظل هذا دأبه إلى أن انطفأ مشعل حياته .

ويقول الأستاذ عمر الدسوقي في كتابه "في الأدب الحديث" هو مصري صميم، من أقـصـى الصعيد، يتصل نسبه من جهة أبيه بسيدنا الحسين رضى الله عنه وقد أشار إلى هذا النسب بقوله:

حسـنـي السـلامة قـاسمي بـطهـطـا مـعشـري وبها مهادي

ومن جهة أمه بالأنصار الخزرجيه"(١) .

ولـد رفـاعة رافـع الـطهـطـاوي في طهطا بمديرية جرجا، ولذلك سمي الطهطاوي، وكانت ولادته في ١٥ /أكتـوبر ١٨٠١م للميلاد (٧ جمادي الثانية سنة ١٢١٦هـ)، وكان أجـداده مـن ذوي اليسـار و مـمـن تـولـوا مـناصب القضاء بمصر، ثم أخنى عليهم الدهر، وحينما ولد كانت أسرته في عسر، فنشأ الوليد نشأة عادية كما نشأ سواد الأطفال عاش

في عصره طفولته متنقلا بين قرية وأخرى من قرى الصعيد مع والده الذي سعى لإقرائه القرآن وتعليمه المتون والأحاديث حتى أصبح متقنا. ولما توفي والده السيد بدوي جاء رفاعة إلى القاهرة ودخل الأزهر سنة ١٨١٧م /١٢٣٢هـ، وكان من المجدين في التحصيل فلم تمضى سنوات قليلة حتى عد في أهل العلم، و أشهر أساتذته في الأزهر الذين تلقى العلم على يديهم هو الشيخ حسن العطار (١٧٦٦–١٨٣٥م) كان الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر وكان له على رفاعة حدب وبه اهتمام، وذلك مما آنسه فيه من حدة الذهن والد أب المتواصل. وكان رفاعة يبادل شيخه الحب ويحترمه، وطالما تردد إلى بيت معلمه يأخذ عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ والنصائح ويتغذي بكتبه، وقد كان لهذه المودة بين الشيخ العطار وصاحبنا رفاعة أثر كبير في حياة الطهطاوي كما سنرى.

استمرت دراسة رفاعة في الأزهر ثماني سنوات عاشها في بؤس وضنك مما تنفقه عليه والدته ببيع ما تملكه من مضاع وأثاث. وأتيح له بعد تخرجه من الأزهر أن يدرس سنتين، فدرس في الأزهر، وكان يتردد أحياناً على مدينته ططا، فيلقى على أهليها بعض دروسه، وقد كان رفاعة منذ عهد الأول مدرسا ممتازاً، فأقبل عليه الطلاب وأفادوا منه، وكانت حلقات دروسه في السنتين التاليتين لتخرجه حافلة دائماً بالمستمعين من التلامذة والمشائخ، يقول تلميذه ومؤرخ حياته صالح مجدي: "وكان رحمه الله حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه، وقد اشتغل في الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى في الحديث، والمنطق، والبيان والبديع، والعروض، وغير ذلك وكان درسه غاصاً بالجم الغفير من الطلبة، وما منهم إلا من استفاد منه وبرع في جميع ما أخذه عنه، لما علمت أنه كان حسن الأسلوب، سهل التعبير مدققا محققا، قادراً على الإفصاح عن المعنى والواحد بطرق مختلفة، بحيث يفهم دراسه الصغير والكبير بلامشقة ولاتعب ولا كد ولانصب"(٢).

وفي سنة ١٨٢٤م (١٢٤٠هـ) عين واعظا وإماماً في أحد ألايات الجيش المصري النظامي الذي أسسه محمد على، فانتظم في سلك ألاى حسن بك المناسترلي ثم انتقل إلى ألاى أحمد بك المنكلى، وكلاهما من أعظم قواد الجيش المصري في عصر محمد علي، وظل الشيخ رفاعة مضطلعا بوظيفته الإمامة من سنة ١٨٢٤م إلى ١٨٢٦م.

بدأت حيا ة رفاعة العملية بالتدريس في الأزهر، ثم بتقلده وظيفة الإمامة في الجيش، فانتقل بذلك من بيئة الأزهر إلى بيئة جديدة، وهي الجيش النظامي، ونعتقد أن هذا الإنتقال قد أحدث تطوراً في حياته وفي سيرته وذهنيته، لأنه بدأ يتصل بالحياة العسكرية، ويألف نظاماً لاعهد له به من قبل، وعيشه فتحت ذهنه إلى نواح جديدة من الحياة والتفكير، ولابد أن تكون الحياة العسكرية التي اتصل بها عن كتب قد أفادته بما فيها من احترام للنظام، وتقدير لمزاياه وإيلاف لأوضاعه واحساس بالدفاع عن الذمار والكفاح في سبيل الوطن، ومواجهة للأخطار، مما يغرس في النفس روح الوطنية والشجاعة والإقدام.

ولم يمكث في الجيش إلا فترة يسيرة حيث فتح الله له أبواب آفاق جديدة واسعة ليعد نفسه لأداء رسالة الإرشاد والإصلاح في محيط أوسع، وهنا يأتي أثر أستاذه حسن العطار في حياته أذ يطلب محمد على إلى شيخ الأزهر أن يقترح عليه اسم أحد الخريجين ليجعله مشرفاً وإماما على رأس البعثة العلمية الكبرى إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م، واقترح شيخ الأزهر رفاعة الطهطاوي على رأس البعثة. أما البعثة فكانت تضم ٤٤ طالباً مصريا ذهبوا لمختلف الإختصاصات العلمية.

وذهب التلميذ الفتى للأستاذ الشيخ يودعه ويشكره، ويسأله النصيحة، فدعا له الشيخ وباركه، و زوده بما يزوّد به الأستاذ المستنير تلميذه النابغ، وطلب إليه قبل أن يغادره أن يعنى منذ اللحظة الأولى بتقييد مشاهداته في رحلة هذه، بالشيخ كما يقول تلميذه– "مولع سماع عجائب الأخبار، والإطلاع على غرائب الأمصار"(٣) .

و قد بر التلميذ بوعده، فبدأ يسجل ملاحظاته منذ أن غادر الإسكندرية، و بعد عودته قدم رحلته "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" إلى أستاذه، بأعجب بها وقرظها لولي الأمر، فطلبها وأمر أن تقرأ له، وحازت رضاء ه، بأمر أن تترجم إلى اللغة التركية، وأن تصبع النسختان: العربية والتركية في مطبعة بولاق، وأن توزع نسخ من الطبعتين على موظفي حكومته ٠

إن رفاعة الطهطاوي لم يضع أيه فرصة للدراسة والكد منذ وضع قدمه على ظهر الباخرة التي أقلته والطلاب المبعوثين إلى فرنسا ٠ بدأ يتعلم اللغة الفرنسية فأتقنها في ثلاث سنوات، ومع أن رفاعة لم يذهب مع البعثة إلا مشرفاً ومرشداً، فقد أبى إلا أن ينغمس في العلم إلى أذنيه، وكان يظن قبل رحيله إلى أوربا أن لاعلم إلا في الأزهر حتى إنه نظم يقول:

" ألا من يغب أزهر العلم فلينح　　على بعد دار العلم والعلماء
ففيه بحور طاميات وغيره　　بحور عروض لاتجود بماء" (٤)

ولكن قلبه المتفتح للنور ما لبث أن أقربما للغرب من تقدم وسبق قي ميدان العلوم جميعها فأصبح يغترف منها دون أن يرتوي، وانكب على الكتب الفرنسية في التاريخ والجغرافيا، والفلسفة والأدب، يقرأ و يؤلف ويترجم ٠ كان رفاعة في فرنسا مثال الصلاح والإخلاص للرسالة التي شرفته بها الأقدار ٠ لقد غدا هناك في صحبة من فولتيروروسو وراسين ومونتسيكو، وأعنى بها صحبة الأوراح والأفكار، وفي فرنسا اشتهر رفاعة وعرف، واتصل بكثير من العلماء والمستشرقين فكان موضع إجلال وإكبار ولاسيما عند المستشرق البارون دى ساسى الذي امتدحه بأنه عرف للوقت قيمته، وأنى لشرقي في ذلك العصر أن يعرف للوقت قيمته؟

بعد ست سنوات عادر رفاعة من أوربا وفي رأسه فكرة ٠٠٠ لقد شاهد في باريس مدرسة اللغات التي كانت تعد المستشرقين فسماها مدرسة الألسن وصمم في

ذهنه على السعى لإنشاء مدرسة الألسن في مصر تكون غايتها إعداد العلماء وكان يقول "إننا بالبعثة ننقل المصريين إلى أوربا، وبهذه المدرسة ننقل علم أوربا إلى مصر". واقترح على محمد على – الذي أعجب سيرته وأعماله في فرنسا – أن يفتتح هذه المدرسة فلاقى قبولا، وكان ذلك سنة ١٨٣١م.

وتقلب الطهطاوي في عهد محمد علي منذ عودته من فرنسا في عدة مناصب. تولى تدريس اللغة الفرنسية في مدرسة الطب: (أبي زعبل) التي انتقلت فيما بعد إلى قصر العيني... ثم انتقل إلى مدرسة المدفعية، حيث عهد إليه بترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية، وافتتحت مدرسة الإدارية والألسن، فتولى إدارتها كما تولى رئاسة "قلم الترجمة" من أول فرقة تخرجت من مدرسة الألسن، و منح لقب أمير الاى وأجريت له جراية شهرية معتبرة، فحسنت حالة لبث رفاعة الطهطاوي رئيسا لمدرسة الألسن يعمل بكد واخلاص طيلة ١٧ عاماً حتى أغلقت المدرسة المذكورة في عهد عباس الأول وغمط رفاعة حقه وانتقصت مكانته بتعيينه ناظراً لمدرسة إبتدائية في الخرطوم بالسودان، بعد أربع سنوات في عهد سعيد عاد رفاعة وكيلا للكلية الحربية ثم ناظراً لها ومديراً لمدرسة الهندسة و مدرسة العمارة مع الإحتفاظ برئاسة قلم الترجمة . لكن هذه المدارس ألغيت جميعها عام ١٨٦٠م و بقى رفاعة بلامنصب حتى عهد اسماعيل، وفي عهد اسماعيل كانت إشراقة علمية وأعيد قلم الترجمة ١٨٦٣م فعاد رفاعة رئيسا عليه و تعين عضواً في مجلس المعارف الأعلى وتولى إدارة جريدة "روضة المدارس" وله فضل الاسهام في إنشاء أول جريدة عربية في الشرق كله وهي الوقائع المصرية.

لقد كان الطهطاوي عالماً وأديباً وقام بأعباء مناصبه الرسمية تلك خير قيام و لكنه لم يكن يكف أثناء حياته عن القراءة والترجمة والتأليف حتى توفاه الله سنة ١٨٧٣م وله من العمر ٨٥ سنة.

فكرة رفاعة رافع الطهطاوي الإجتماعية

من الناس من تمضى به الحياة وانية غير حفية فإذا مضى عرف الناس قدره و لهجوا بذكره، ومن الناس من يعظم في الحياة جاهه ويشيع ذكره فإذا مضى غفل عنه التاريخ ونسيه الناس، ومن الناس من يذكره بالفضل وينبه بالمثل الصالح ويؤثر بالحمد وإن لم يحظ بجاه الحياة وسلطان الحكم فإذا مضى عرف فضله وخلد ذكره، وكان رفاعة رافع الطهطاوي من هذا القبيل، عرفه الناس معلما و كاتبا و شاعراً و ناثراً و صحفيا وأديبا و مؤرخاً يصول في كل ميدان من ميادين الفكر.

عاش رفاعة طوال حياته يجوب آفاق الفكر محدد الغاية واضح الهدف مع ميل عارم أن يصدر بفكره إلى الناس، فغايته أن يعلم الناس ماتعلم وأن يهديهم بفكره إلى الرشد من أمرهم منطلقا بهم من قيود الجمود التى رانت على عقولهم طويلاً عسا هم يتحرو ن من وقر الماضي الذي يقعد بهم عن التقدم والنهوض.

يقول تلميذه صالح مجدي "فلما كان طالبا بالأزهر كان تواقا إلى أن يفيد الناس مما تعلم فنراه حين يؤوب إلى بلده طهطا يعكف على تعليم الناس ما تعلم. فيقرأ عليهم بمسجد جده سيدي أبي القاسم دروسا حافلة في أوتار العشر الأواخر من شهر رمضان، كما يدرس في الجامع اليوسفي ببندر ملوى صغرى الصغري للسنوسي"(٥).

ويقول رفاعة رافع الطهطاوي في فكرته الإجتماعية "إن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد... وإن أعظم حرية في المملكة المتمدنة هي حرية الفلاح، والتجارة، والصناعة... والعدل أساس الجمعية التأنسية– (المجتمع الإنساني). والعمران والتمدن، فهو أصل عمارة الممالك، التي لايتم حسن تدبيرها إلا به، وجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرع عنه وكالصفة من صفاته، وحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلة بالجنس البشري، إلا إذا صحبها حب مثل ذلك للاخوان وأهل الأوطان"(٦).

وقسم رفاعة رافع الطهطاوي الفضيلة على ثلاثة اقسام : شخصية و منزلية و أهلية، فالأولى هي ما ينبغي أن يتصف بها كل إنسان لتكون وسيلة لحفظه ومادة لصونه، والثانية هي سلوك الطريقة النافعة في العمل لجمعية العائلة التي تقيم في منزل واحد كالاقتصاد في النفقات وبرالوالدين وحسن العشرة مع الأزواج وحسن تربية الأولاد و محبة الإخوة بعضهم لبعض و أداء حقوق السيد لخادمه والخادم لسيده. أما الفضائل الأهلية أو الإجتماعية، فكثيرة ولكنها ترجع إلى أصل واحد هو العدل والإنصاف المستلزم جميع فضائل الجمعية. ونجاح الجمعية التأنيسة وتقدم أعمالها مداره الخلق الكريم ولاأضر على الجمعية من فساد الأخلاق فأنه ينشأ عنه الكبر و عدم الاستقامة لأن الغني المتكبر مثلاً يذهل في نشوة لذته عن أن المال خيال زائل فيحسر ويجرؤ بالتكبر على غيره، ويظن أنه بعيد عن صروف الدهر فيقع فيها و يبعد عن الاستقامة التى هي قوام جميع الفضائل المدينة لأنها حسن السلوك في التعامل وأداء حقوق العباد والمرأ المتهاون في حقوق الجمعية المدنية يعد عديم الاستقامة لايعرف ما يجب له وما يجب عليه في حق الجمعية التي يعيش فيها فاستقامة الإنسان إحترام حقوقه باحترام حقوق غيره والحصول على منافعه بالوفاء بمنافع غيره ويذكر الاستاذ فتحى رفاعة عن فكرة رفاعة الطهطاوي الإجتماعية، فيقول: "ورأى رفاعة أن جماع مكارم الأخلاق الإجتماعية منحصرة في قوله صلى الله عليه وسلم "لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" لأن الرجل الصالح المستقيم لايقتصر على الكف عن فعل الشر" بل يرى أن الحقوق الواجبة فعل الخير والمعروف"(٧).

فالإستقامة تنهى عن الشر والصلاح يأمر بالخير ومن ذلك يتبين أن الرجل الإجتماعي عند رفاعة هو العادل والمنصف المستقيم الصالح.

أما العلاقات التي يجب أن تسود المجتمع و تتوطر بين أفراد الشعب فقد وجد في قوله صلوات الله تعالى عليه " لا تحاسدوا ولاتناجشوا ولاتباغضوا ولاتدابروا ولايبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لايظلمه

ولايـخـذلـه ولا يـكـذبه ولا يحقده التقوى ههنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام : دمه و ماله وعرضه".

و وجـد فـي هـذا الـقـول مثـلا من الأمثلة العليا للعلاقات التي يجب أن تسود بين الـنـاس ولـذلك مـضـى يشـرح الـحديث شرحا تفصيليا، ولما كان من أعضاء المجتمع من لايستـطيـع الـكسـب لـمرضه أو شيخوخته كان من الواجب إنشاء مؤسسات تنهض بسد حـاجة هؤلاء والقيام بشئونهم وهنا يرى رفاعة أن الدولة وحدها لايستطيع القيام بذلك الـعـب ء و لهـذا يـنبغي أن يعينها على أداء هذا الواجب جمعيات الأغينـاء وأهل الميسرة. وقـد شـاهـد رفـاعة فـي أوربـا جماعات البر تقوم بحاجات البائسين والمعوزين و رآها أقـدر على الدوام وأنهض بما عليها من الأعباء فنادى بإنشاء هذه الجماعات بدلا مما كان مـعـروفـاً بمصر يومئذ من الصدقات الشخصية التي لاثبات لها ولا دوام، وقال رفاعة في هذا الصدد: "ومما ينبغي إعانة ولي الأمر على مضاعفة المحال الخيرة من أرباب جمعيات الأغـنيـاء وأهـل الـميسـرة لتكثير وسائل البر والتقوى: لتكثير المارستانات التي ترصد عـلـى الـمرضى والزمني العاجزين عن المعالجة في بيوتهم و كتركيب مارستانات كرصد عـلـى الأطـفـال الـذين يلتقطونهم من الطرق والأيتام وعلى الشيوخ المتقدمين في السن والـعـميـان والبـلة و الـمـجـانين وأرباب العاهات العاجزين وكالمحال الخيرة والشركات السليـمة أي الـمتـعـلـقة بـالبيـع والشراء على سبيل السلم لتسهيل الأخد والعطاء و قطع دابـرالـربـا والإعانة الملهومين من القرض بربا الفضل ولإغاثة المعسرين والمفلسين من التـجـار الـمتـعـطـليـن عن الأشغال لحصول حادثة جبرية أوقعت الكسادوسوء الحال و بـالـجـملة فـارصـاد التكايا والمدارس والرباطات والشركات المباحة شرعاً و كل ما فيه مـصـلـحة– مشروعات خيرية لاتستطيع أن تقوم بها الدولة وحدها أو إنشاء مخصوص وحده ويد الله مع الجماعة فلابد في إبراز هذه المصالح الخيرية من جمعية أغنياء ترصد عـليها الإرصادات وترتب لها الرواتب اللازمة الدائمة الاستغلال فهذه صدقات جارية من جهة شـركـات تـعـاونية يـقتسـمون أجـرهـا ويـحـرزون شـكـرهـا فـجمعيات فعل الخير

بـالإشتـراك قـليـلة في بلادنا بخلاف الصدقات الشخصية والإرصادات الأهلية يرصدها الواحد في الغالب كالسبيل والصهريج والمكتب فإن هذا يتحدد بمصر كثيراً ولايتأس له ما به يكون الدوام والإستمرار"(٨).

إصلاح زراعي

ورفـع رفـاعة صـوته مناديا بحق العامل في أن ينال أجرا يناسب ما بذله من الجهد والـعـناء ودحض حجة هؤلاء الذين يزعمون أن من حق المالك أن يستحوذ على محصولات أرضـه وألايـكـافـئ الـعامل ما يستحقه من المكافأة فقد بين رفاعة في كتابه "أثر العمل في جلب الثروة" وأنه أقوى من خصوبة الأرض وإذا صح ذلك فمن الظلم غبن الأجير ولايدل حـديـث الـزرع والزارع على جواز هذا الغبن كما لايجيزه ظن أن المالك قد دفع رأس ماله فـي الـزراعة و أنـفـق عليها فهو الأحق باستحواذ على المحصولات الجسيمة والأولى بربح أمـوالـه الـعظيمة، وأن عملية الفلاح فرعية– تعتمد على رأس المال وتستند إليه وذلك كله مـحـض مـغالطة فعمل الأجير هو المنتج ولولاه ما ربحت الأرض هذا الربح العظيم فمحاولة الـمـالك تـقـلـيـل أجرته مستقلا ازدحام أهل الفلاحة على العمل اجحاف به وإيذاء له لايثمر محبة الأجير للمالك والإيذاء ممنوع شرعاً ويخيل إلى أن رفاعة بدفاعه هذا يريد أن يشرك العامل مع صاحب الأرض في غلتها ولكنه لم يبين ما يخص العالم من هذا الإنتاج.

وعـقـد رفـاعة فـصلا مطولاً مدح فيه السعى والعمل وذم الكسل ولاغرابة أن يعقد هـذا الـفـصل بعد أن يبين قيمة العمل في جلب الشراء الذي هو أساس سعادة الأمة، ولذا كـان يـؤذيـه رؤية هـؤلاء الـكسـالـي الـقـادريـن على السعى ولكنهم يؤثرون السؤال على الأعـمـال ويـلـحـون فـي الـطلب و لعل في نشر قانون الشحاذة الذي سنه الفرنسيون ما يوحى برضاه عن سن مثله لمكافحة هذا الداء الوبيل.

وكان رفاعة متفائلا بمستقبل الوطن ويرى الزمن القادم أفضل من الماضي حضارة ومدنية، فيقول: "فلا ينبغي لأبناء الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلف تجرد عن فضائل السلف وأنه لايتصلح الزمان إذ صار عرضه للتلف، فهذا من قبيل البهتان فالفساد لاعتقاد ذلك لافساد الزمان " (٩).

وتلك العقيدة المتفائلة هي التي دفعت رفاعة إلى تأليف كتبه في الإجتماع يبصر أمته فيها لوسائل النهضة وأسباب الرقى و في التربية يريد أن يأخذ بيدها إلى تبوؤمكانها الذي كان لها في القديم والذي طالما أشاد به رفاعه وحث بنى وطنه على إعادته وكان رفاعة يرجو أن سيأتي يوم يحقق فيه المجتمع المصرى ما يصبو إليه من آمال في المجد. هذا و مما هو جدير بالذكر هنا أن رفاعة كان يقدر مهنة التعليم حق قدرها و يجل القائمين بأمرها حتي لقد كتب في كتاب المرشد الأمين "إن خير الناس وخير من يمشي على الأرض المعلمون".

أما الكتب التي تكلم فيها رفاعة عن المسائل الإجتماعية فالأول كتابه "تخليص الابريز في تلخيص باريز" وأما الكتاب الثاني الذي تكلم فيه رفاعة عن المسائل الإجماعية فهو "مناهج الإلباب المصرية في مناهج الآداب العصرية" وقد حدد فيه رفاعة وسيلتين للنهوض بالمجتمع الأولى معنوية و تقوم على تهذيب الأخلاق والتأديب بآداب الدين، والثانية مادية تقوم على استغلال الثروة والعمل على رفع مستوى المعيشة وحرص على أن يبين طريق كسب المال يجب أن يكون من غير مهانة ولاعسف وأن يكون إنفاقه في المصاريف الحميدة والعاقبة الجميلة الذكر، ويقول الأستاذ فتحى رفاعة "ويعد رفاعة من المفكرين الأوائل الذين نادوا بقيمة العمل وعدوه أساس تقدم الأمم وارتفاع شأنها وقارن في ذلك بين حالة أفريقيا وأوروبا، فذكر أن أوروبا ارتفع شأنها بسبب العمل والنشاط والحركة الدائبة،و أن أفريقيا ظلت مدة طويلة متأخرة لأنها اعتمدت على خصوبة أرضها دون العمل"(١٠).

وأما الكتاب الثالث : فهو "قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر" وأما الكتاب الرابع: فهو "المرشد الأمين للبنات والبنين" وهذا الكتاب موسوعة للآداب والسلوك والحقوق والواجبات في مجتمع متكامل تسوده الحرية والمساواة، و يستوى فيه الناس من الجنسين في الحق الواجب .

الفصل الثاني

رفاعة في باريس

وفي سنة ١٨٢٦م قررت الحكومة المصرية إيفاد أكبر بعثاتها العلمية وأهمها إلى فرنسا، كي يطلب طلابها العلم الحديث هناك. فكانت هذه البعثة هي الإطلالة الهامة والحقيقية والكبرى للعنصر المصري والعربي على الحضارة الأوروبية الحديثة في مواطنها وديارها.

وكان من حسن حظ رفاعة الطهطاوي وحظ مصر أن طلب محمد علي إلى الشيخ العطار أن يختار له من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولى إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م، يرى فيه اللياقة لتلك الوظيفة، فوقع الإختيار على الشيخ رفاعة الطهطاوي.

وأوفدت أول بعثة كبيرة إلى فرنسا في سنة ١٨٢٦م (١٢٤٢هـ) وسافر رفاعة ليكون إماما للبعثة – لاطالباً من طلابها – ولكن رفاعة ذا نفس طموحة وآمال عريضة، وجب للعلم، وشغف بالبحث، فاعد العدة بينه و بين نفسه أن يقبل على التحصيل منذ يغادر أرض مصر، حتى يعود إلى وطنه خيراً مما غادره، وقد برّ بوعده لنفسه، فحصل في فرنسا الكثير، وكان أنبغ أعضاء بعثته، ثم كان زعيم النهضة العلمية في عصره و قائدها بعد عودته. ويقول الأمير عمر طوسون عن تخصصات هذه المعثة: "فتوزع أفراد البعثة على تخصصات مثل:

١- الإدارة الحربية، بفروعها المختلفة...

٢- الإدارة الملكية، أى السياسة والإرادة- بما في ذلك الإحصاء والإقتصاد السياسي- "ليكونوا من رجال السياسة".

٣- الهندسة الحربية و علم المدفعية.

٤- الكيمياء و عمليات السبك.

٥- الطب البشرى.

٦- الطب البيطري.

٧- علوم البحرية و فنونها.

٨- الرسم والمعمار.

٩- الزراعة والإقتصاد الزراعي.

١٠- المعادن والتاريخ الطبيعي.

١١- الترجمة الشاملة لمختلف العلوم والفنون والآداب.

ومع هذه التخصصات يدرسون جميعا : اللغة، والحساب، والرسم، والتاريخ، والجغرافية"(١). وفي باريس قضى تلاميذ البعثة جميعا نحو سنة وهم يقيمون معاً في بيت واحد، ويشتركون معاً في دراسة مواد واحدة، يقول رفاعة: "كنا نقرأ في الصباح كتاب تاريخ ساعتين، ثم بعد الظهر درس رسم ثم درس نحو فرنساوي، وفي كل جمعة ثلاثة دروس من علمي الحساب والهندسة"(٢).

وكانت هذه الخطة ترمى إلى عزل تلاميذ البعثة، حتى لايفسدهم الإختلاط، أو الحياة في باريس، و حتى يستطيعون التوفر على دراساتهم ليحصلوا العلوم التي يريدون على أحسن وجه، وفي اسرع وقت، ولكن هذه العلوم التي أوفدوا لدراستها مودعة في بطون المؤلفال الفرنسية، ولاسبيل إليها إلا اتقان هذه اللغة حديثا وقراءة

وفهماً، ولاسبيل إلى هذا الإتقان إلا أن يختلط هؤلاء الشبان بأندادهم من الفرنسيين حتى تستقيم ألسنتهم.

أحس بهذا النقص المشرفون على البعثة، كما أحس به أعضاء البعثة أنفسهم، يقول رفاعة: "مكثنا جميعاً في بيت واحد دون سنة نقرأ معاً في اللغة الفرنسية، وفي هذه الفنون المتقدمة، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية إلا مجرد تعلم النحو الفرنساوي، لهذا صدرت الأوامر بتوزيع هؤلاء المبعوثين، فتفرقوا في مكاتيب متعددة، كل اثنين، أو ثلاثة، أو واحد.. في مكتب مع أولاد الفرنساوية، أو في بيت مخصوص، عند معلم مخصوص، بقدر معلوم من الدراهم في نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم"(٣).

وفي هذه المكاتب كان التلاميذ المصريون يقضون ليلهم ونهارهم في التحصيل، ولم يكن يسمح لهم بالخروج إلا في يوم الأحد، أو بعد ظهر الخميس، أوفي الأعياء الفرنسية، وكان يحدث أحياناً أن يخرج بعضهم بعد العشاء إن لم يكن يشغله درس أو واجب.

وكان رفاعة أكثرهم انهما كافي عمله، وأشدهم إقبالا عليه، ولم تكن تسعفه أوقات فراغه في النهار، فكان يقضي معظم ساعات الليل ساهراً بين كتبه و دروسه، يقرأ و يتفهم و يترجم، حتى أصيبت عينه اليسرى بضعف، و نصحه الطبيب بالراحة، ونهاه عن المطالعة في الليل، ولكنه لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه.

ويقول الدكتور جمال الدين الشيال عن رفاعة "ولم يقنع رفاعة بالكتب التي تشتري له على حساب البعثة، فقد أحس لذة المعرفة، فأقبل يشتري كتباً أخرى من ماله الخاص، ثم أحس أن دروس أستاذه لاتكفى لإشباع نهمه، فاستأجر معلماً خاصاً ظل يدرس له أكثر من سنة، وكان يدفع له أجره من مرتبه الخاص"(٤).

واتصل رفاعة بكثير من العلماء المستشرقين، فأجلوه وأكبروه، ومنهم المستشرق المشهور (البارون دي سالي) و (كوسان دي بر سفال).

واهتم في دراسته بالتاريخ والجغرافية، والفلسفة والأدب، فقرأ (فولتير) و (روسو)، (ولاسين)، (ومونتسكيو) وغيرهم، وقرأ بعض الكتب في علم المعادن وفنون الحرب والرياضيات، ومالت نفسه وهو بباريس إلى التأليف والتعريب، فوضع رحلته وسماها: (تخلص الإبريز في تلخيص باريزي، وقد كان استاذه العطار قد أوحى إليه بذلك، وعرب نحو اثنتى عشرة رسالة في مختلف الفنون والعلوم من هندسة و معادن وطبيعة و تاريخ و تقويم و ميثولوجيا و علم الصحة والأخلاق، وترجم كذلك في باريس كتابه (قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر) ٠ وهو أول من كتب من المصريين في المباحث الدستورية، مع أن هذه المباحث كانت مجهولة في تاريخ مصر القومي ٠ قضى رفاعة سنة في باريس، ثم عقد له و لزملائه امتحان في نهاية هذه السنة، فنجح رفاعة بتفوق، وأرسل إليه ميسو (جومار) مدير البعثة جائزة التفوق، وهي كتاب "رحلة أنخرسيس في بلاد اليونان" وهو "سبعة مجلدات جيدة التجليد مموهة بالذهب"(٥)٠

وبعد عام آخر عقد امتحان ثان فوفق فيه كما وفق في سابقه، وكانت جائزة في هذه المرأة كتابين من تأليف المستشرق الفرنسي (دي سالسي) وهما: "الأنيس المفيد للطالب المستفيد" و "جامع الشذور من منظوم و منثور" ٠

وفي باريس اتصل الشيخ رفاعة بكبار المستشرقين الفرنسيين، و خاصة الميسودسلفستر دي ساي) و "الميسو كوسان دي برسيفال)، و نشأت بينه و بين هذين العالمين صداقة متينة وكان كل منهما يقدر جهد الشيخ التلميذ وعلمه وقد تبادلت بينه و بينهم كثير من الرسائل أثبت بعضها رفاعة في رحلته، وقد أطلعهما قبيل سفره على مخطوطة رحلته فأعجبا بها، وكتبا عنها تقريظاً، وأرسل كل منهما– للمسيو (جومار) بصفته مدير البعثة– خطاباً كله ثناء و تقريظ لرفاعة وكتابه، قال "دي ساسي":

"إن ميسو رفاعة أحسن صرف زمنه مدة إقامته في فرنسا، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة، و تمكن منها كل التمكن، حتى تأهل لأن يكون نافعاً في بلاده، وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس وله عندي منزلة عظيمة و محبة جسيمة"(٦) .

وذكر السيد صالح مجدي تلميذه و مؤرخ حياته في كتاب (حلية الزمن): "وقال لي" من أثق به ممن كانوا معه بباريس: "انه كان يؤدي الفرائض والسنن، ولم يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، وواظب على تلاوة القرآن "(٧).

وكان رفاعة قبل أن يغادر مصر يظن أن العالم كله قد جمع في الأزهر، وأنه سيحرم الاغتراف من هذا النبع العذب، وفي ذلك يقول:

الا من يغب عن أزهر العلم فلينح على بعد دار العلم والعلماء
ففيه بحور طاميات، وغيره بحور عروض لاتجود بماء

ولكن يتبين له بعد أن ذهب إلى باريس، واتصل بثقافة الغرب أن وطنه في حاجة ملحة إلى معرفة هذه الثقابة الجديدة ليرقى و ينهض، و أنه لايكفيه علم الأزهر، ولذلك جد في الترجمة، حتى ليخيل للمرأ أنه يريد أن ينقل كل شئ إلى اللغة العربية وإلى مصر، ولا بدع فكل شئ أمام ناظريه جديد، وعلى عقله غريب .

ولا عجب فقد ساعد على تزويده بهذه الروح أمور أربعة: المران الذي اكتسبه وهو يكلب العلم في الأزهر، والنفحة التي أضفاها عليه أستاذه العطار، وحبه العجيب للعلم وشغفه بالتحصيل، ثم نفسه العالية الطموح، ورغبته في هذه النفس، وإرضاء باعثه و باعث النهضة الجديدة في مصر ولى النعم محمد علي .

وفي ١٩/ أكتوبر سنة ١٨٣٠م بعد خمس سنوات عقد الإمتحان النهاتي لرفاعة رافع الطهطاوي، وباشر إمتحانه مجلس جمعه (جومار) حتى تتضح – كما يقول الطهطاوي – "قوة الفقير في صناعة الترجمة التي اشتغلت بها مدة مكثى في فرنسا"(٨).

وتقدم رفاعة إلى لجنة الإمتحان بخلاصة مجهوداته في الترجمة طول هذه السنوات الخمس، وهي اثنتا عشرة رسالة ترجمها عن الفرنسية إلى العربية، وهذا بيانها:

١- نبذة في تاريخ اسكندر الأكبر ماخوذة من تاريخ القدماء.

٢- كتاب أصول المعادن.

٣- روزنامه (تقويم) سنة ١٢٤٤هـ، ألفه ميسو "جومار" لاستعمال مصر والشام، متضمنا لشذرات علمية وتدبيرية.

٤- كتاب دائرة العلوم في أخلاق الأمم وعوائدهم.

٥- مقدمة جغرافية طبيعية مصححة على ميسو "دهنبلض".

٦- قطعة من كتاب "ملطبرون" في الجغرافية.

٧- ثلاث مقالات من كتاب "الجندر" في علم الهندسة.

٨- نبذة في علم هيئة الدنيا.

٩- قطعة من عمليات رؤساء ضباط العسكرية.

١٠- أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الأفرنج.

١١- نبذة في الميثولوجيا يعني جاهلية اليونان و خرافاتهم.

١٢- نبذة في علم سياسات الصحة.

كما قدم الطهطاوي إلى الجنة الإمتحان مخطوطة كتابه الذي ألفه على رحلته إلى باريس، وهو "تخليص الابريز في تلخيص باريس" كما تقدم الأبحاث والتقارير في الإمتحانات العليا.

و رأت لـجـنة الإمتـحـان أن تـزداد ثقة من قدراته في الترجمة، فأجرت له امتحاناً "شـفـوبـاً" بـأن أحـضرت له بعض الكتب العربية المطبوعة في مطبعة "بولاق" بالقاهرة فتـرجـم بـعـض فقراتها بسرعة، وأحضرت له عدداً من صحيفة "الوقائع المصرية" ، فقرأ مـواضع من عباراتها العربية باللغة الفرنسية ٠٠٠ وعند ذلك قررت اللجنة أن الطالب قد "تخلص من هذا الإمتحان على وجه حسن"!

كـمـا كتـب الـممتـحنون تقريراً عن امتحانه جاء فيه، أن أهل مجلس الامتحان قد تـفـرقـوا "جـازمين بتقدم التلميذ المذكور، و مجمعين على أنه يمكنه أن ينفع في دولته، بـأن يتـرجـم الـكتـب الـمهمة المحتاج أليها في نشر العلوم، والمرغوب تكثيرها في البلاد المتمدنة"(٩) ٠

ويـقـول الـدكتـور جـمال الدين الشيال: "اجتاز رفاعة الإمتحان بعد أن قضى في فـرنسـا خـمـس سـنـوات طوال، وأقام فيها على الدرس والتحصيل إقبال الطالب المجد الـمـحـب لعمله، وقد قرأ في هذه السنوات كتبا شتى فيعلوم متباينة، و ترجم الكثير من هـذه الـكتـب، ولـكنه شغف أكثر ما شغف بعلميالتاريخ والجغرافيا متأثراً بميله الخاص ودراستـه الأدبية الأولـى فـي الأزهر– فرشح نفسه لترجمة هذين العلمين، فهو يقول في خـاتـمة رحـلتـه: "وإن شـاء اللهتـعـالـى ٠٠٠ يـصيـر التـاريـخ عـلى اختلافـه منقولا من الـفـرنسـاوية إلى لغتنا ٠٠٠فقد تكلفنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافية بمصر السعيدة بمشية الله ٠٠٠"(١٠) ٠

وفـي سـنة ١٨٣١م (١٢٤٧هـ) عاد الطهطاوي إلى مصر من بعثته في باريس خمس سنوات كاملة تغير فيها الشيخ عقلاً وعلماً و تفكيراً و آمالا ولكنه لم يتغير بل لم يتأثر ديناً وأخلاقاً، ولم تؤثر إقامته بباريس أدنى تأثير في عقائده، ولا في أخلاقه وعوائده ٠

الفصل الثالث

أعمال رفاعة رافع الطهطاوي بعد عودته من فرنسا

كانت البلاد عند عودة رفاعة رافع الطهطاوي من فرنسا في حاجة إلى التعريب لنقل العلوم الأوروبية إلى لغة البلاد، فتولى منصب الترجمة و تدريس اللغة الفرنسية في مدرسة الطب بابى زعبل.

وفي سنة ٨٣٣/١٢٤٩هـ، انتقل من مدرسة الطب إلى مدرسة المدفعية (الطوبجية) بطرة، وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية، وله فيها رسالة مترجمة في الهندسة العادية، وهي من الرسائل التي كانت تدرس في المدرسة الحربية بسان سير بفرنسا. وفي غضون ذلك وقع وباء في القاهرة، فسافر إلى ططا، فمكث بها ستين يوماً، ترجم في خلايا مجلداً من جغرافية (ملتبرون) Malt-Bron وعاد به إلى القاهرة، وقدمه لمحمد علي فأكرمه وأنعم عليه برتبة واستمر بمدرسة طره إلى سنة ١٢٥١هـ.

رفاعة و مدرسة الألسن

ثم رأى رفاعة رافع الطهطاوي أن البلاد في حاجة إلى طبقة من العلماء الأكفاء في الآداب العربية وفي آداب اللغات الأجنبية ليضطعوا بمهمة تعريب الكتب الفرنسية وليكونوا صلة الإتصال بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية وينهضوا بالأداة الحكومية في المناصب التي تعهد إليهم، فاقترح على محمد على باشا إنشاء مدرسة الألسن، وكان من مزايا محمد علي أنه يحسن تقدير الاقتراحات والأراء السديدة التي تعود على البلاد بالخير والتقدم، فبادر إلى إنفاذ الاقتراح وإنشأ مدرسة الألسن

بـالـقاهرة سنة ١٨٣٦م وكانت تعرف حين إنشائها بمدرسة الترجمة، ثم عرفت بعد ذلك بـمـدرسة الألسـن، وعهـد بنظارتها في السنةالتالية إلى الشيخ رفاعة، وهنا هيأت فرصة جديدة لـظهـور نبـوغ المترجم كعالم محقق، و رئيس قدير، ومعلم كفء، ومربّ لايشق له غبـار، فـلـقد قام بادارة تلك المدرسة خير قيام، واختارلها التلاميذ من مدارس الأرياف والأقـاليـم، ومـن طبقة الأزهر، فبلغ عددهم في بداء ة عهدها خمسين تلميذاً، ثم زاد حتى صار ١٥٠، و عنى بتثقيفهم وتنشئتهم حتى تخرج منها نخبة من العلماء والشعراء والأدباء الذين اسهموا في النهضة العلمية والأدبية الحديثة.

ويـقـول الأستـاذ عمر الدسوقي: "وكانت المدرسة كلية تدرس فيها آداب العربية، واللـغـات الأجـنبية وخـاصة الـفـرنسية والتركية والفارسية، ثم الإيطالية والإنجليزية، وعـلـوم التاريخ، والجغرافية، والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية: فكانت أشبه شئ بـكـلية لـلآداب والـحقوق مجتمعتين، وكان نهج المدرسة في الترجمة عملياً و مفيداً، فلم يـكـن دروسـاً تكتب في دفاتر و تهمل، بل يمرن الطلبة على الترجمة في كتب نافعة، فإذا استـغـلـقـت عـليهـم جملة لجئوا إلى شيخهم يذللها لهم، ثم عرضوا ما ترجموا على استاذ الـلـغة الـعـربية يـصـحـح لهـم لغتهم، وخاصة الشيخ محمد قطة العدوي، فقد كان ساعده الأيـمـن فـي هـذه الـمدرسة، لما رزقه من موهبة جليلة في التدريس بلغة سهلة، و بعبارة فصيحة و قدرة فـائـقة عـلى تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون فإذا أتمو الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع، فتكون أثراً خالداً"(١).

وكـان رفـاعة يتـولـى التـدريـس فيهـا بـنفسه، يعاونه طائفة من خيرة المصريين والأجانب. واشتهر رفاعة بغيرته على تثقيف تلاميذ المدرسة بلا كلل ولا هوادة، وكان فـي بـعـض الأحيـان يـمكث نحو ثلاث ساعات أو أربع ساعات يلقي الدروس واقفاً على قدميه في دروس اللغة أو فنون الإدارة أو الشرائع الإسلامية الأجنبية، وكذلك كان دأبه معهم في تدريس فنون الآداب العالية.

وأحيل على رفاعة مع إدارة المدرسة إدارة عدة معاهد: المدرسة التجهيزية، ومعهد الفقه والشريعة الإسلامية، ومعهد المحاسبة، و مدرسة الإدارة الإفرنجية، والتفتيش على مدارس الأقاليم، وتحرير الوقائع المصرية ٠

وبعد سنوات تخرجت الدفعة الأولى في مدرسة الألسن فتلقفتهم مصالح الدولة المختلفة ٠ و ابتدءوا يفيضون و أستاذهم على مصر من بحور الغرب وكنوز ثقافته ما كان دعامة لنهضتنا الحديثة ٠

رفاعة و قلم الترجمة

وفي سنة ١٨٤١م / ١٢٥٨ه أنشئ قلم الترجمة ملحقاً بمدرسة الألسن تحت إشراف رفاعة رافع الطهطاوي ٠

وذكر الأستاذ احمد عزت عبد الكريم إنشاء قلم الترجمة فيقول:

"أنشئ في أوائل سنة ١٢٥٨ه / ١٨٤١م تنفيذاً لإشارة لجنة تنظيم التعليم فقد رأت اللجنة "أن الواجب يقضي بأن تكون التراجم مضبوطة مستوفية حقها من الصحة، سليمة من الخطأ، فلهذا، ولكون ترجمة كتب العلوم والفنون ليست مقصورة على معرفة اللغة فحسب، بل متوقفة أيضاً على الإلمام بالعلم أو الفن المترجم كتابه، فقد أنشأت اللجنة غرفة الترجمة الخاصة بالمترجمين" ٠

و قسمت هذه الغرفة إلى أربعة أقلام:

١- قلم ترجمة الكتب العلمية والرياضية ٠

٢- قلم ترجمة كتب العلوم الطبية والطبيعية ٠

٣- قلم ترجمة الأدبيات أو "المواد الإجتماعية" كالتاريخ والجغرافيا والمنطق والأدب والفلسفة والقوانين والقصص ... الخ.

٤- قلم الترجمة التركية.

ثم ألحق بهذه الأقسام عدد من المبيضين لتبييض الكتب بعد ترجمتها وإرسالها إلى ديوان المدارس للاطلاع عليها، فكان يشير بطبع النافع القيم منها"(٢).

وفي هذه الفترة أيضاً في سنة ١٢٧٤هـ، عهد إلى رفاعة بتنظيم صحيفة الوقائع المصرية والإشراف على تحريرها، فأحدث فيها تغييرات جمة، وخطا بها و بتحريرها خطوات واسعة، ورأى أن الغرض من طبع الوقائع إنما هو لنشر الأخبار الحديثية على الناس حتى يستفيد منها كل إنسان، ولايجب الإكتفاء بنشر أخبار مصر فحسب، وقد أصبح من ا للازم إضافة بند للحوادث الخارجية في الجريدة حتى يتقبلها الناس برغبة و شوق، و حيث أن نشر مثل هذه الأخبار يتوقف على قراءة الجرائد التي تنشر في الخارج، وكان لمكانة رفاعة الطهطاوي أثر كبير في تقدير الصحيفة واعتبارها، واحترام لغة البلاد فيها، فإن مكان اللغة قد تبدل، فأصبحت العربية في الناحية اليمنى تتصدر في الجريدة صفحاتها الأربع، وأخذت التركية مكان اليسار ظل رفاعة رافع الطهطاوي سبعة عشر عاماً وهو دائب في عمله لايمل ولايكل، وفي كل آونة يضاف إليه عمل جديد يتقبله بصدر رحب و عزيمة قوية، وكلما زاد اجتهاده و تناجه زاده أولو الأمر مكافأة و تقديراً فمنحه محمد على رتبة أمير الاي)، و ١٣٠٠ قرشا في الشهر، و ٣٥٠ فدانا في طهطا.

ويقول الدكتور جمال الدين الشيال "وقد أنعم عليه محمد على بمائتين و خمسين فدانا، وأقطعه ابراهيم باشا" حديقة نادرة المثال في الخانقاه تبلغ ستة و ثلاثين فدانا، وأنعم عليه سعيد باشا بمائتى فدان، واسماعيل باشا بمائتين وخمسين فداناً"(٣).

رفاعة الطهطاوي في منفاه بالخرطوم

لم يزل رفاعة رافع الطهطاوي ناظراً لمدرسة الألسن مع نظارة قلم الترجمة إلى أن أقفلت في عهد عباس باشا الأول سنة ١٨٥١م، ولم يكتف عباس بإقفالها بل أمر بإرسال رفاعة إلى السودان بحجة تولية نظارة مدرسة ابتدائية أمر بإنشائها في الخرطوم.

وغريب عباس باشا الذي يقفل المدارس في القطر المصري يعني بإنشاء مدرسة ابتدائية في الخرطوم، نعم أن فتح المدارس في السودان قاطبة أمر مطلوب ومرغوب فيه لذاته، فما السودان إلا جزء من مصر، و نشر لواء العلم والمعارف في انحائه واجب على الحكومة، ولكن إقفال المدارس في مصر ينم على محاربة عباس باشا للعلم والتعليم، فكيف تتفق هذه النزعة مع التفكير في فتح مدرسة ابتدائية بالخرطوم يرسل إليها جماعة من أركان النهضة العلمية في مصر و على رأسهم زعيم هذه النهضة في مدرسة المهندسخانة، و قد توفى في منفاه بالخرطوم، وأحمد طائل أفندي أستاذ الرياضيات، وغيرهم ولا يقبل المنطق أن يكون الفرض من إرسال هؤلاء الأقطار إلى السودان لنشر العلم في ربوعه، إذ كان يقصد خدمة العلم بإنشاء "مدرسة ابتدائية بالخرطوم" لما كان معقولاً أن يقع الاختيار على كبير علماء مصر في ذلك العصر ليتولى نظارتها، ولا أن يعهد بتدريس الحساب فيها إلى كبير علماء الرياضيات بين أساتذة مدرسة المهندسخانة، فلابد أن يكون للأمر سر آخر غير الرغبة في إنشاء المعاهد العلمية. وقد يكون سره الحقيقي رغبة عباس باشا قي إقصاء علماء مصر إلى السودان، فكما أنه أقفل مدارس مصر راى أن يبعد عنها علماء ها الأعلام، و قد وشى له في حق رفاعة فاتسع صدره للوشاية ولم ير وسيلة للتخلص من رفاعة إلا إرساله إلى السودان، وكان الذهاب إلى السودان في ذلك العصر يعد نفيا مقصوداً به العقاب والقصاص، وخاصة لمن كان في منزلة رفاعة الطهطاوي.

ويـر الأستـاذ عبـد الـرحـمٰن الرافعي نفيه فيقول : "ويلوح لى أن لكتابه "تخليص الأبـريـز" سببـا يتـصل بنفيه، إذ لايخفى أنه طبع للمرأة الثانية سنة ٢٦٥ أى في أوائل عهـد عبـاس بـاشـا، والكتاب يحوي آراء و مبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد، وعباس بـاشـا الأول كـان فـي طبـعـه مستبداً غشوماً، فلابد أن الوشاه قد لفتوا نظره إلى ما في كتـاب رفـاعة مما لايرون لعباس، فرأى أن يبعده إلى الخرطوم ليكون السودان منفى له، ولاغـرابة في ذلك فلو أن هذا الكتاب ظهر في تركيا على عهد السلطان عبد الحميد لكان مـن الـمحقق أن يكون سببا في هلاك صاحبه، فمن الجائز أن يكون عباس باشا قد رأى نـفـى رفـاعة وأمثـال رفاعة إلى السودان ليبعدهم و يبعد أفكارهم و ثقافتهم عن مصر، و اتخذ لنفيهم صورة ظاهرة وهي إنشاء مدرسة بالخرطوم"(٤).

أما الدكتور عزت عبد الكريم فيرى أن هناك احتمالين لابعاد رفاعة إلى السودان، أولهما سعى علي مبارك، الذي عاد من أوربا ملئيا بالاطماع والذي كان يحقد على رفاعة مـا أصـاب مـن مـكـانة، وقد قرب عباس إليه علي مبارك وأبعد رفاعة إلى السودان، فلما خلفه سعيد قرب إليه رفاعة، وأبعد علي مبارك إلقرم: والثاني ما يحتمل أن يكون رفاعة قـد لقيه من معارضة بعض المشائخ المتعصبين الذين ربما عدوه متطفلا على ميدانهم في دراسة الشريعة والفقه"(٥).

وهذه كلها تفسيرات احتمالية أو اجتهادية تفتقر إلى سند تاريخي مادي، وأصدق مـنهـا ما ذكره رفاعة نفسه من أنه سافر إلى السودان "بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بـوسيلة نظار ة مـدرسة بـالـخـرطـوم، وإن كـان لم يذكر أسماء هؤلاء الأمراء، أو ما هية الوشاية التي وشعابها ضده.

غيـر أنـه عـاد فـأشـار إليهم في إيضاح مستقر في قصيدة نظمها وهو في السودان متغيثا مما هو فيه بحسن باشا قال فيها:

وما خلت العزيز يريد ذلى ، ولا يصغى لأحصام لداد

لديه سعوا بألسنة حداد فكيف صغى لألسنة حداد

مهازيل الفضائل خادعوني وهل في حربهم يكبو حوادى

و زخرف قولهم إذ موهوه على تزييفه نادى المنادى

فهل من صيرف المعنى بصير صحيح الانتقاء والانتقاد

قياس مدارسي قالوا عقيم بمصر فما النتيجة في بعادى"(٦)

و يقول الأستاذ أحمد أمين بك: وكان الشيخ ماكراً فقد وضع القصيدة على وزن وقافية ٠

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لاحياة لمن تنادي"(٧)

والحق أن رفاعة كان في منفاه رجلا بكل معاني الرجولة، فلم يستسلم لليأس، ولم تفقر عزيمته، ولا جمدت قريحته، وحسبك دليلا على قوة إرادته أنه ترجم في منفاه كتاب "مواقع الأفلاك في وقائع تليماك" ، وهو يقع في نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير، كما أنه رتب مدرسة الخرطوم أحسن ترتيب وأدارها أحسن إدارة و تخرج منها طائفة من الشبان تولوا مهمة التدريس في المدارس التي أنشأتها الحكومة في السودان على عهد الخديو اسماعيل ٠

بعد عودته من السودان

ولما توفي عباس الأول سنة ١٨٥٤م و تولى سعيد باشا أريكة مصر عاد رفاعة من السودان فعينه وكيلاً للكلية الحربية، ثم ناظراً لها، ومديراً لمدرسة الهندسة، و مدرسة العمارة، مع الإحتفاظ برئاسة قلم الترجمة، بيد أن هذه المدارس جميعها ألغيت في سنة ١٨٦٠م، كما الغى قلم الترجمة فظل رفاعة بدون منصب حتى عهد اسماعيل،

حين هبت على العلم والتعليم نسمة من الحياة، فبعثته قويا فتيا، وأعيد قلم الترجمة بنظارة المعارف العمومية وتولى رئاسته من جديد رفاعة سنة ١٨٦٣م، و عين عضواً في مجلس المعارف الأعلى الذي كان يعرف حينذاك بـ (قومسيوان المدارس) وكان لهذا المجلس فضل كبير في تنظيم التعليم، على عهد اسماعيل.

رفاعة والقانون

وحينما فكرت الحكومة في إصلاح نظام القضاء على عهد اسماعيل رأت أن تبدأ بترجمة القوانين الفرنسية المعروفة بـ(الكود) وهو قانون نابليون، وكانت هذه مهمة عسيرة تتطلب إلماماً واسعاً بالقوانين الفرنسية، وأحكام الشريعة الإسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها في القانون الفرنسي، وهذا كله يحتاج إلى صبر طويل ومثابرة وهمة.

ويقول الأستاذ عمر الدسوقي" ولم تجد الحكومة خيراً من رفاعة وتلاميذه، ليقوم بهذه المهمة الجليلة، فقام بهذا العمل مع بعض من نجباء جريجي مدرسة الألسن، وأخرجوه في مجلدين كبيرين"(٨).

رفاعة و روضة المدارس

و من أجلّ أعماله أنه تولى رآسة تحرير مجلة "روضة المدارس" ويقول الدكتور ابراهيم عبده عن مجلة روضة المدارس "أنشأ اسماعيل فيما أنشأه من صحف ومجلة أدبية سماها "روضة المدارس" سنة ١٨٧٠م، وكان الغرض من إنشاء هذه الصحيفة النهضة باللغة العربية وإحياء الأدب العربي و نشر المعارف الحديثة وألقيت أمورها إلى رفاعة الطهطاوي ناظر قلم الترجمة، وتولى ابنه على بك فهمي رفاعة رياسة تحريرها،

وكـان يـحـرر فيها طائفة من أعلام الفن والعلم والصحافة من الأجانب والمصريين وكان شعارها يتبين من الشعر:

تـعـلـم الـعـلـم واقـرأ تـحـز فـخـارا لـنبوة

فـاللّه قـال ليـحـى خـذ الكتاب بقوة"(٩)

وفاته

ظـل هـذا الـعـالـم الـجـليل يدأب و يجد في نشر الثقافة و فتح أبواب العلم والنور للأمة المصرية، حتى توفى ستة ١٢٩٠هـ /١٨٧٣م وله من العمر ٧٥ سنة.

الفصل الرابع

رفاعة المعلم والمدرس

لم يكن جهاد رفاعة رافع الطهطاوي سنوات درسهَ بالأزهر مخصصاً كله للدرس والتحصيل، فلقد كان الطالب الذكي الطموح يعاني من عسر مالي لازم الأسرة منذ طفولته، وكانت والدته الصامدة الصبورة تجهد لتعين ولدها على طلب العلم بثمن ما تبيعه من بقايا الحلى والعقال التي بقيت لديها من سنوات اليسار. بل لقد كان احترف رفاعة العمل بالتدريس أثناء درسه بالأزهر... فكان "أثناء مجاورته بالأزهر يعبر النيل كل يوم ليقرأ، بالجانب الغربي منه، درساً لجناب حسين بك، نجل المرحوم طوز أو غلو، كما عمل مدرساً بالمدرسة الخاصة التي أنشأها في داره محمد لازوغلو كى يتعلم فيها المماليك وغيرهم"(١).

فاحترف رفاعة صناعة التدريس في قصور الأثرياء كى يستعين بدراهمهم على بلوغ الغايات الطموحة التي رحل في سبيلها من طهطا إلى ساحات الأزهر الشريف.

وفي سنة ١٨٢١م تخرج رفاعة الطهطاوي من الجامع الأزهر، وكانت سنه يومئذ واحداً و عشرين عاماً، فجلس للتدريس في نفس الجامع الأزهر بعد أن أثبت جدارة في هذا العمل من قبل، فلقد كانت الدراسة حرة، يقبل الطلاب على من يلمسون الاستفادة منه، وينصرفون عمن لايزودهم بما هو هام و مفيد. ولقد ألقى رفاعة الطهطاوي على طلبته دروساً في علوم شتى، منها علوم: الحديث، والمنطق، والبيان، والبديع، والعروض، وغيرها.

وقد كان رفاعة منذ عهده الأول مدرساً ممتازاً، فأقبل عليه الطلاب وأفادوا منه، كما يقول تلميذه و مؤرخ حياته صالح مجدي عن رفاعة و مقدرته كمدرس و معلم: "كان حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كلٌّ من أخذ عنه ٠٠٠٠ وكان درسه غاصا بالجم الغفير من الطلبة، وما منهم إلا من استفاد منه، وبرع في جميع ماأخذه عنه، لما علمت أنه كأحسن الأسلوب، سهل التعبير، مدققا محققا، قادراً على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة، بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلامشقة ولا تعب، ولاكد ولانصب، وكان إذا أراد أن يغوص في المعاني الدقيقة، و يعترض و يجيب، و يخطِّئ و يصوِّب، و يجمع الفروع لأصولها، والأشياء لمداركها، لم يكد – لعلو نفسه – أن يفهم ما يلقيه إلا الألمعي الذكّي الذهن، و يكفيه شرفا أن من جملة من أخذ عنه وانتفع به من أبناء مصر و غيرهم، الفقيه المدرس المدقق، والعالم المحدث المحقق، العلامة الشيخ العرب مفتي المدينة المنورة النبوية – على ساكنها أسمى (٧ب) سلام، و أسنى تحية ٠

ولاحاجة لنا إلى ذكر كثير ممن أخذوا عنه من أفاضل مصر المدرسين الذين لهم في درجات العلم المقام المكين"(٢) ٠

وفي أحد الدروس التي جلس رفاعة رافع الطهطاوي ليلقيها على طلبته، شارحاً لهم كتاب: (المعجم الوجيز في أحاديث الرسول ﷺ العزيز)، كان أحد أخواله العلماء – الشيخ فراج الأنصاري، وهو من العلماء الزهاد الذين كتبوا تقريرات نفيسة على كتاب (شرح الرملي) في مذهب الإمام الشافعي – كان الشيخ فراج يجلس متخفيا بين الطلاب المجتمعين من حول رفاعة، يستمع معهم إلى إلقائه، ويسبرغور علمه، فلم يتمالك نفسه إن صاح قائلاً: "لله درك يابن الأخت! لقد بلغت في العلم درجة الأعلام، ونلت – بمساعدة اللغة – مرتبة تقف دون وصفها الأقلام"(٣) ٠

وكان لدى رفاعة الطهطاوي ميول طبيعية لإحتراف صناعة التدريس، وهو قد مارسها، هوويا ومحترفاً، منذ مرحلة طلبه العلم في الأزهر، وها هو يمارسها، كعالم، بعد

تـجرجه، و يمكث في ممارسة لها عامين (١٨٢٢–١٨٣٤م)٠ ولم يكن التدريس بالأزهر يـدر عـلـى صـاحبـه دخلاً مـاديـا فـي تـلك الأزمـنة، فـلم يكن وظيفة حكومية لأصحابها الـرواتـب كـمـا هوالآن٠٠٠ ويقول عبد الرحمٰن الرافعي: "وكان ررفاعة رافع الطهطاوي يتـردد بيـن حيـن وآخـر عـلـى طهـطـا ويـلـقـى بعض الدروس بجامع جدة أبي القاسم، فـامتـازت دروسـه بـجـاذبية كانت تحببه إلى المستعين وترغبهم في الاستزادة من بحر عـلـمـه، وهـنـا ،ظهـرت خـاصية جـديـدة في المترجم، وهي مقدرته و نبوغه في التعليم والتثـقيف، و ليـس كـل عالم ينال هذه الموهبة، بل هي ميزة تحتاج إلى جاذبية معنوية، وكفاء ة ممتازة، ومما يذكر عنه ان علماء طهطا شهدوا له بالسبق في هذا المضمار، وكانت دروسه تحفل بالسامعين وطلبة العلم"(٤)٠

وفـي سـنة ١٨٢٤م تـحـول رفـاعة عن خدمة الطلبة إلى خدمة الجيش، وفي سنة ١٨٢٦م سافر رفاعة إلى فرنسا، ثم رجع إلى وطنه مصر سنة ١٨٣١م كامل الثقافة وغدا مـعـلـم أمة ورائد نهضة، وكان معلما ينقل لتلاميذه ما هم في حاجة إليه من علوم الغرب و فـنـونـه، ويكتب لهم ما يقومهم ويرشدهم إلى السداد من طريقهم فتخرج على يديه رعيل من الرواد كانوا لبنة النهضة المصرية الحديثة٠

وكـان يـؤمـن أن التـرجـمة هيالنواة الأولى في بناء النهضة العلمية، فلم يقصر عمله عـلـى تـرجـمة الكتب المدررسية بل عداه إلى ترجمة ما هوته نفسه من التاريخ والجغرافية، ويـقـدر مـا أقبـل عـلـى تـرجـمة كتب الجغرافية كان إقباله على التأليف في التاريخ، وبين التـرجـمة والتـأليف شـغـل كـل فـراغـه فلايكاد يفرغ من أعباء الوظيفة حتى يكب أحدهما وكـأنـه يسـابـق الـزمـن لـلـوفاء برسالته، فلا نعرف أنه انقطع طوال عمره الذي نيف على الخامسة والسبعين عن التحرير والتحبير٠

عيـن رفاعة مترجما و مدرساً للغة الفرنسية بمدرسة الطب في أبي زعبل، وكانت الـدروس تـلقى فيها بالفرنسية ثم تترجم للطلبة إلى العربية تحت إشراف مترجم سوري

يدعى "يوحنا عنحوري" أجرى له اختباراً دل على امتيازه، وشهد له "عنحوري" عند روسائه بأنه "أستاذي وهو أحق منى بالرياسة، لأنه أدرى مني بالتعريب، والتنقيح والتهذيب، وهذه شهادة الحق التي تقضى له بالسبق"(٥).

وأشرف رفاعة الطهطاوي على المدرسة التجهيزية والمدرسة المدفعية فيها الطلبة الحساب والهندسة ووصف الكون والتاريخ القديم والحديث والمنطق والجغرافية.

ثم تقدم رفاعة باقتراح إنشاء مدرسة للترجمة لاعداد طبقة من المترجمين الضالعين في اللغة العربية واللغات الأوروبية يقومون بترجمة ما تنتفع به الدولة من كتب الغرب و تستغني البلاد بأبنائها عن الدخيل، وليكونو صلة بين الشرق والغرب ولقي الاقتراح قبولا من محمد علي فعهد إليه باختيار تلاميذها، وعرفت المدرسة عندما أنشأت عام ١٨٣٥م بمدرسة المترجمين وغيراسمها بعد ذلك إلى مدرسة الألسن، و مدة الدراسة بها خمس سنوات واللغات التي تدرس بها هي العربية والفرنسية والتركية والفارسية والإيطالية والهندسة والجبر والتاريخ والجغرافية و درس الإنجليزية لفترة من الزمن، الا أن أعظم العناية كان باللغتين العربية والفرنسية، ثم الحقت المدرسة التجهيزية بمدرسة الألسن لاعداد تلامذة للمدارس الخصوصية قادرين على الترجمة في نواحى تخصصهم، واختيرللتدريس بها خريجو مدرسة الألسن"(٦).

واتسعت مدرسة الألسن فوسعت عدا المدرسة التجهيزية قلما للترجمة وقسما لدراسة الإدارة الملكية العمومية سنة ١٨٤٤م، لاعداد الموظفين للازمين للعمل بالإدارة الحكومية، وقسما آخر لدراسة الإدارة الزراعية وقسما لدراسة الشريعة الإسلامية.

وغدت مدرسة الألسن أشبه ما تكون بجامعة تضم كليات للآداب والحقوق والتجارة، وفيها أثمر جهد المعلم الذي وقف حياته على رعاية التعليم والثقافة في مصر طوال النصف الأوسط من القرن التاسع عشر. فقام بإدارة المدرسة والإشراف على

الدراسة بها إلى جانب عمله في التدريس والتعليم ومراجعة الكتب التي يقوم تلامذة بترجمتها، يعاونه طائفة من خيرة الأجانب والمصريين وكلهم من أعلام عصره، وكأنما وجد رفاعة في مدرسة الألسن غاية نفسه فوهبها كل جهده مؤمنا بأن خير ما يقدمه لبلاده أن يعد لها جيلاً من المترجمين والمعلمين، فكان يقوم الليل والنهار عليها، فقد كان "دأبه" في – مدرسة الألسن كما يقول علي مبارك– وفيما اختاره للتلامذة من الكتب التي أراد ترجمتها منهم و في تأليفاته و تراجمه خصوصاً، أنه لايقف في ذلك اليوم والليلة على وقت محدود، فكان ربما عقد الدرس لتلامذة بعد العشاء،أو عند ثلث الليل الأخير، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات واقفاً على قدميه في درس اللغة أو فنون دأبه معهم في تدريس كتب فنون الأدب العالية بحيث أمسى جميعهم في الإنشاء ات نظما ونثراً أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم، ومع ذلك كان هو شخصه لايفتر عن الإشتغال بالترجمة أو التأليف، وكانت مجامع الامتحانات لاتزهو إلا به"(٧).

وأضيف إليه تفتيش عموم مكاتب الأقاليم و تفتيش مدارس الخانقاه وأبي زعبل، كما كان يرأس كل عام لجنة امتحان تلاميذ مكاتب بالأقاليم، فيركب النيل إليها ويمتحن تلاميذها ويختار المتفوقين منهم للمدرسة التجهيزية، فغدا أبرز شخصية في ميدان التعليم في عصره، وكأنما أريد له أن يكون المعلم الأول في جيله.

وكان التلاميذ يمرنون على ترجمة الكتب زيادة على دروسهم، ويقوم الأساتذة بمراجعتها وإصلاحها تحت إشرافه ثم تطبع ليقرأها المدرسون والتلاميذ.

وفي عام ١٨٣٩م تخرج عشرون طالباً من مدرسة الألسن أول مرة، وفي عام ١٨٤٩م الفيت مدرسة الألسن، وانتهت فترة جليلة من حياة المعلم كان لها أبعد الأثر في نهضة البلاد الفكرية، واتصالها بالثقافة الغربية اتصالاً مثمراً ينم عنه ما قام به أبناء هذه المدرسة من ترجمات نيفت على ألفي كتاب، وما اضطلعوا به من أعمال في دوائر الحكومة نبهوا فيها ونبه شأنهم بها"(٨).

لم تتصل حياة المعلم بمثل هذا العمل الجليل في ميدان التعليم من بعد. ثم عين ناظراً لمدرسة ابتدائية في السودان ومعلماً و مدرساً لتعليم و تدريس أولاد الناس و صبيانهم و درس فيها التلاميذ من أبناء المصريين القاطنين هناك طرفاً من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط، ولم يعد رفاعة إلى مصر إلا بعد وفاة عباس وتولية سعيد، فعين مترجماً بديوان المحافظة تحت رياسة أدهم و عين ناظراً ثانيا للمدرسة الحربية وبعده ناظراً عليها ثم عين مديراً لمدرسة الهندسة و مدرسة العمارة و تولى رئاسة قلم الترجمة وعين عضواً في مجلس المعارف الأعلى و درس في هذه المدارس العلوم المختلفة والترجمة. فقد امتد رفاعة بفكره و آرائه إلى آفاق أرحب هي التي خلدت ذكره وأن بقيت له صفة المعلم في كل حال.

ويصف تلميذه صالح مجدي عن مجلسه فيقول: "وكان مجلسه – رضوان الله عليه – مجلس مسرات وأفراح، وطالما حضرته و سمعت فيه من لطف المزاح، ما يشهد له برقة المزاج، ويقضي بأن سحره الحلال يقوم للعليل مقام العلاج".

تذكرني أنفاسه رائد الصبا ويذكرني إسفار أسفاره الفجر
و مارقّ زهر الروض إلا بتسمت لنا ظر عيني منه آدابه الزهر

ولقد كان فيه زيادة كرم و سماحة، ومزيد بلاغة و فصاحة"(٩).

وكان رفاعة رافع الطهطاوي بهذا رائد بعث وإمام نهضة استوت وامتدت على الزمن إلى كافة جوانب الحياة والفكر في مصر، وكان دوره فيها دور المعلم والمدرس الذي يعلم و يدرس ويرشد و يوجه، في حلقات الدرس، وعلى صفحات الورق كتابا أو صحيفة، وفي كل منها كان أثره بارزاً مثمراً.

الفصل الخامس

مكانة رفاعة رافع الطهطاوي لدى العلماء

لاأبالغ إذا قلت ان نتاج مصر الثقافي المعاصر يرجع في أصله ويرتد في كافة منابته إلى البدايات التي خطها رفاعة الطهطاوي بكتاباته وترجماته وآرائه وأفكاره وجهوده العلمية ومواقفه النضالية فطبع منطلق المسيرة لثقافة العربية المصرية المعاصرة في كافة جوانبها٠٠٠ ورفاعة الطهطاوي هو الصورة البارزة الحية للمثقف المصري الأصيل الذي أوجدته ظروف عصره في مفترق العديد من الطرق٠٠ والذي استطاع بفضل وطنيته الخالصة وشخصيته الصلبة أن يشق للثقافة المصرية أسلم وأصح وأقوم المسالك، وأن يجعل من هذه الثقافة مقوما حضاريا صحيحا وأكيدا لتأسيس و دعم قوائم بناء الحياة المصرية الجديدة التي انبعثت مع انبثاق القومية المصرية الوليدة على بداية القرن التاسع عشر٠

ولد رفاعة عام ١٨٠١م وجيوش نابليون تغادر أرض مصر٠٠٠ وتوفى عام ١٨٧٣م، فيستطيل جهده و كفاحه على مدار حياة مصر طوال قرابة ثلاثة أرباع قرن٠٠٠ وتأتي وفاته بعد أن يضع اللبنات الأولى في بناء صرح ثقافة العربية المصرية المعاصرة٠

فإذا ما عادت مصر إلى صحوتها بعد السنوات القاسية الباكرة من عمر الاحتلال٠٠٠ عادت روح رفاعة ممثلة في تلاميذه بل في كافة المثقفين الذين أنبتتهم التربة المصرية بعد ذلك لاستكمال الصرح الثقافي الذي وضع رفاعة الطهطاوي لبناته الأولى٠٠٠ فلقد تكرر في حياة معظم المثقفين من بعده صورا متعددة من حياة رفاعة و

مـواقفه وجهاده في سبيل خلق ثقافة عربية مصرية متحررة٠٠ تستمد أصولها من تراث الماضي وترسى قواعدها على مقومات "المعارف العصرية والتمدنات الحديثة"٠

والـحـق ان المرء ليدهش كلما أوغل في حياة رفاعة وجهاده و مواقفه أمام تواجهه بـه مـن انطباقات مع صور حياة وجهاد و مواقف أبناء مصر المثقفين الذين جاء وا بعده فاختطوا ينهجه٠

قال عبد الرحمٰن الرافعي بك:

"ارتـحـل (رفـاعة) إلـى مـعـاهـد العلم في باريس، واستروح نسيم الثقافة الأوروبية، فزادت معارفه، واتسعت مداركه، ونفذت بصيرته، لكنه احتفظ بشخصيته، واستمسك بدينه و قوميته، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها، ورجـع إلـى وطـنـه كـامـل الثـقـافة، مهـذب الفؤاد، ماضي العزيمة، صحيح الـعـقـيـدة، سـلـيـم الـوجـدان، عاد و قد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم، فبر بوعده ووفي بعهه، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفا وترجمة و تـعـلـيـماً وتربية، فملأ البلاد بمؤلفاته و معرباته، وتخرج على يديه جيل مـن خيرة علماء مصر، وحمل مصباح العلم والعرفان يضئ به أرجاء البلاد، ويـنير به البصائر والأذهان، وظل يحمله نيفا وأربعين سنة، وانتهت إليه الـزعـامة الـعلمية والأدبية في عصر محمد علي، وامتدت زعامته إلى عصر اسماعيل، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوي"(١)٠

و قال الدكتور ابراهيم عبده:

"اختـصـمـت الثـقـافة الشـرقية والـغـربية في صحفينا الطهطاوي، فهو من الـمـمـتـازيـن حـفّـاظ الـقـرآن و مـن نـوابغ تلاميذ القضابي والشيخ حسن الـعـطـار، و خـاصة الأخيـر مـنهما الذي احتفى به و فتح له بيته وتلقى عليه

علوماً متباينة، من أهمها التاريخ والأدب والجغرافيا، حتى أصبح في نظر معاصريه "الأديب الأريب العلامة الثبت الثقة الحجة في كل علم و فن الذي سابق جهابذة عصره في مضمار العلوم والفنون، فلم ينتظم معه في سمطها أحد إلا كان واسطة العقد في جيد الزمن"(٢) .

ويقول الأستاذ أنيس المقدسي:

"ولم يكن رفاعة عالماً و أديباً فحسب، بل كان إنسانا كبيراً، محباً للإصلاح، حريصا على خدمة جيله و وطنه .. ولعلّ أبرز صفاته عزمه الذي لم يكن ليتراجع أمام المصاعب، و ميله إلى اقتباس المفيد من أسباب التمدن الحديث. أما عزمه، فيشهد له به ما عاناه في رحلته إلى أوروبا من مشاق السفر والحرص على الدرس والمطالعة، وما قام به من أعمال إدارية و علمية بعد رجوعه إلى الوطن. وأما اقتباسه المفيد من أسباب التمدن فيظهر في اهتمامه بالعلوم العملية التي كانت أترابه في الأزهر يحرّمونها أو يزدرونها"(٣) .

وقال تلميذه صالح مجدي:

"وقال لي من أثقبه ممن كانوا معه تحت التعليم بمدينة باريس: إنه قام مدة مكثه في هذه المدينة بأداء الفروض والسنن أتم قيام، ولا يأكل شيئا مما لم يذكر عليه اسم رب الأنام. وواجب على تلاوة القرآن الشريف، ومطالعة العلم المنيف مع الانهماك على تعلم اللغة الفرنساوية، حتى عاد بسلام إلى الديار المصرية"(٤).

وقال الأستاذ انور الجندي

"تتمثل في حيلة رفاعة الطهطاوي صورة عصر كامل، في ترابطه بين الأزهر و أوربا، و بين الأدب التقليدي والترجمة، رمز على التحول وعلامة على التطور فهو اسم برّ كل الأسماء في عصره، وقاسم مشترك على الحركة الثقافية والنهضة الفكرية في عصره، و صورة لفجر اليقظة، يتمثل في مصر كجناح من أجنحه العالم العربي، ولايماثله إلا خير الدين التونسي في المغرب، ولا يسبقه إلا العطار والجبرتي ولا يلحق به إلا على مبارك ومحمود الفلكي"(٥).

وقال الدكتور صلاح أحمد هريدي على:

"ومن الخدمات الهامة التي قدمها رفاعة لوطنه اهتمامه الشديد باللغة العربية وآدابها وأصبح لها روحها الجديدة في وقت وصلت فيه هذه اللغة إلى درجة كبيرة من الإنحطاط. فأحياء اللغة والتراث العربي القديم قد قوى النزعة الوطنية خصوصاً إذ قام الأدب على خدمة الأهداف الوطنية"(٦).

ويقول الأستاذ احمد أمين بك في مقالاته عن رفاعة:

"كان من العادات الظريفة التي اندثرت أن يجتمع الجم الغفير من العلماء والأمراء والأغنياء والتجار في ليلة من ليالي رمضان في بيت السادات في بركة الفيل و يجلس الشريف الحسيب النسيب شيخ السادات مجلسه الفخم الوقور يمنح الرتب والألقاب لمن شاء من الزوار ولكن ليست رتبة

بك ولا باشا ولا نحو ذلك إنما هي ألقاب وكنى يستمدها من الوحي الصوفي والإلهام اللدني! فهذا أبو الأنوار وهذا أبو الوفا وهذا أبو البركات وهذا أبو الخير ففي ليلة من هذه الليالي الرمضانية كان من الزوار شيخنا الشيخ رفاعة فتفرس فيه شيخ السادات ونظر إليه بقلبه ثم قال له أذهب فأنت أبو العزم، وكذلك كان و كانت كنية موفقة فأبرزت صفات الشيخ رفاعة عزمه"(٧).

ويصف تلميذه صالح مجدي عن تواضعه فقال:

"وكان المرحوم كلما ارتقى إلى أسنى المناصب، و جلس على أسمى المراتب، ازداد تواضعه للرفيع والوضيع، وتضاعف سعيه في قضاء حوائج الجميع، ولم يغتر بزينة الدنيا وزخرفها، ولا استقبحها ولا استلطفها، وكان إذا توجه إلى بلده للزيارة وصلة الأرحام، اجتمع عليه بمسجد جدة أبى القاسم الجم الغفير من العلماء والأطفال والأفاضل، وألقى عليهم دروسا في التفسير، مع مزيد السهولة في التعبير، وكان قليل النوم، كثير الإنهماك على التأليف والتراجم، حتى إنه ماكان يعتني بملابسه – كما هي عادة الأفاضل – من الأواخر والأوائل، لاشتغالهم عنها بما هو أنفع منها"(٨).

وقال الدكتور عبدالوهاب عزام بمناسبة احتفال طهطا بيوم رفاعة في ٢٩ مايو سنة ١٩٥٧م

"قليل في تاريخ الأمم أمثال السيد رفاعة، و نادر نظيره في طلائع تاريخنا الحديث، وفي الفارطين إلى ورد مناهل العلم – الذين يردون أعذبها وأصفاها فيشربون – ويستقون لأمتهم .. و لبثت الدولة تنقل

السيد رفاعة من عمل إلى عمل تريد أن تستفيد به في كل الأعمال، وكأنه أمة واحدة في فجر تاريخ مصر الحديث، فمن مدرسة الطب إلى مدرسة الألسن إلى المدرسة العسكرية إلى مدرسة الهندسة إلى أعمال أخرى تنقل بينها رفاعة باذلا جهده في نفع أمته، محققا آمال أمته فيه، لايستريح ليلاً ولا نهاراً ولايبالي بما يلقى من مشقة، وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام"(٩).

مكانة رفاعة الطهطاوي لدى علماء الغرب

كان رفاعة الطهطاوي يمثل في نظر مفكري الغرب الثقافة العربية والعقلية المصرية في القرن التاسع عشر حتى وفاته عام ١٨٧٣م، ومع أن الذين قابلوه كثيرون فإن عديداً من بينهم قابله و كتب عنه، و من هؤلاء الذين كتبوا عنه أو قابلوه نذكر":

١ـ الميسو فرانسوا جومار مدير البعثة التعليمية في باريس وهوأول من اكتشف مواهبه و توسم فيه النبوغ والذكاء والعبقرية وأيد ضمه عضواً بالبعثة المصرية بفرنسا لدى المسؤلين في مصر و ظل تقديره له حتى بعد انتهاء بعثته و عودته إلى مصر إذ رشحه لعضوية الجمعية الجغرافية الفرنسية.

٢ـ المستربايارد يتلور سفير أمريكا في برلين الذي زار مصر والسودان، قال:

"من بين الموظفين المصريين الذين عرفتهم في الخرطوم سيد كان قد نفاه إليها والى مصر وهذا السيد المنفي هو رفاعة رافع الطهطاوي، وهو من ذوي الثقافة العالية والذكاء المتوقد، وقد أحزنه كل الحزن ابعاده عن وطنه و عن أهله إلى هذا البلد السئ الجو الذي عانى فيه ألما شديدا بسبب الحمى المنتشرة فيه"(١٠).

و مما قال عنه موريس شيمول Maurice Chemoul في دائرة المعارف الإسلامية:

"وكان رفاعة أحد كبار كتاب العربية في القرن التاسع عشر و قد ارتبط إسمه بالنهضة القيمة في الحركة الأدبية والعلمية للشرق الحديث و بنفسية البحاثة وذكائه النادر خلف لنا عملا جديراً بالتقدير يعالج مختلف النواحي من تاريخ و جغرافيا و قواعد نحو و حقوق و أدب و طب و غير ذلك ولكى نقدر الدور العظيم الذي قام به يجب أن نذكر أنه في فجر هذا القرن الأخير كان العالم العربي يغط في شبه نوم منفصلا من أوربا المثقفة بحجاب سميك ولم يكن في هذه الظلمة التي تلف هذا العصر سوى ضوء خافت يشعه الأزهر فبفضل أعماله ونشاطه تمت هذه المعجزة بإذاعة العلوم الأوربية وفتح أبواب الشرق للأفكار الحديثة وتهذيب عقول معاصريه و إيقاظ حماستهم الراقدة وتهيئة المستقبل و من المستطاع تقدير ما تم من جهد إذا تذكرنا أنه قام هو وتلاميذه بترجمة ما يقرب من ألفى كتاب ألى العربية والتركية و من ناحية أخرى بتوسيع المحيط الضيق القديمة الموروثة بإحياء وبإمدادها بفيض من الألفاظ الجديد ة فسمح للعقلية العربية بالتجديد وأن يعم نور الإسلام في الوقت الحاضر"(١١).

وقال الأستاذ أحمد أمين يصف عن جناره رفاعة رافع الطهطاوي وما أصاب الناس من ألم لوفاته:

"اهتزت مصر لموته (أى رفاعة) واحتشد لتشييع جنازته الألوف المؤلفة من رجال المعارف والأمراء والنبلاء وتلاميذ المدارس و ازدحمت الشوارع بالناس يردون بعض جميله، يذكره الأزهريون على أنه ابنهم

والـمتـعلمون المدنيون على أنه أبو هم والجالية الفرنسية على أنه أخوهم والـمـصـريـون كلهم على أنه مؤسس نهضتهم و كلهم يتوجع لفقده و يشيد بـذكره وسار المشهد من منزله بمهمشة حتى إذا قارب المدينة كان ينتظره الشيـخ الأزهـر وعـلـمـاؤه و طـلبتـه، فاشتركوا في تشييع الجنازة ووضع النعش في القبلة الجديدة ولايكون ذلك إلا لعظيم وأخذ الأفاضل في رثائه بـالـقـصـائـد والـخـطب ثم حمل إلى بستان العلماء حيث طويت صحيفة و بـقيـت آثـاره خـالـدة تعظم و تتزايد و تتولد– رحمه الله فقد صنع لأمته كثيراً"(١٢).

ورثاه تلميذه السيد صالح مجدي بقصيدة طويلة يقول فيها

"كيف السبيـل إلـى دفـع المنياتِ عن أنفس الناس من ماض و من آت!
رفـاعة، عـالم الدنيـا و واحدهـا وخيـر مـن كـان يُـرجـي لـلملمـات
والأرض قد عمها في يوم مصرعه حـزن تصاعد منها للسموات"(١٣)

المصادر والمراجع

الفصل الأول

حياته وفكرته الإجتماعية

(١) في الأدب الحديث — عمر الدسوقي — جـ١ صـ ٣١

(٢) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن — صالح مجدي — صـ ٢٦

سيرة رفاعة رافع الطهطاوي

(٣) تخليص الأريز في تلخيص باريز — رفاعة رافع الطهطاوي — صـ ٥٦

(٤) نفس المصدر — صـ ٥٦

(٥) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن — صالح مجدي — صـ ٢٥

(٦) رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث — محمد عمارة — صـ ٢٨٥

(٧) لهجة تاريخية عن حياة و مؤلفات الشيخ — فتمي رفاعة — صـ ٣

رفاعة بدوي رافع الطهطاوي

(٨) نفس المصدر — صـ ٤

(٩) نفس المصدر — صـ ٥

(١٠) نفس المصدر — صـ ٩١

الفصل الثاني

رفاعة في باريس

(١) البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي — عمر طوسون — صـ ١٠—١٣

عباس الأول و سعيد

(٢) تخليص الأبريز في تلخيص باريز — رفاعة رافع الطهطاوي — صـ ٢٢٦

(٣) نفس المصدر — صـ ٢٢٦

(٤) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي — جمال الدين الشيال — صـ ١٢٣

(٥) تخليص الأبريز في تلخيص باريز رفاعة رافع الطهطاوي صـ ٢٤٧
(٦) نفس المصدر صـ ٢٣٦
(٧) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن صالح مجدي صـ ٣٢
(٨) تخليص الأبريز في تلخيص باريز رفاعة رافع الطهطاوي صـ ٢٤٨
(٩) نفس المصدر صـ ٢٤٩
(١٠) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي جمال الدين الشيال صـ ١٣٠–١٣١

الفصل الثالث

أعمال رفاعة رافع الطهطاوي بعد عودته من فرنسا

(١) في الأدب الحديث عمر الدسوقي صـ ٣٨
(٢) تاريخ التعليم في عصر محمد علي احمد عزت عبد الكريم صـ ٣٤٠–٣٤١
(٣) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي جمال الدين الشيال صـ ١٤١
(٤) عصر محمد علي عبد الرحمٰن الرافعي صـ ٥١٨
(٥) تاريخ التعليم في عصر عباس و سعيد عزت عبد الكريم صـ ٥٨
(٦) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي جمال الدين الشيال صـ ١٤٣
(٧) زعماء الإصلاح احمد أمين
(٨) في الأدب الحديث عمر الدسوقي صـ ٤٣
(٩) أعلام الصحافة العربية ابراهيم عبده صـ ٣٣

الفصل الرابع

رفاعة المعلم والمدرس

(١) رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث محمد عمارة صـ ٤٤
(٢) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن صالح مجدي صـ ٢٦–٢٧
(٣) رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث محمد عمارة صـ ٤٦
(٤) عصر محمد علي عبد الرحمٰن الرافعي بك صـ ٥٠٢

(٥) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن — صالح مجدي — صـ ٣٥

(٦) عصر محمد علي — عبد الرحمٰن الرافعي بك — صـ ٣٩٥

(٧) أعلام و أصحاب أقلام — انور الجندي — صـ ١٦٤

(٨) تراجم مصرية و غربية — محمد حسين هيكل — صـ ١٠٣

(٩) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن — صالح مجدي — صـ ٦٥

الفصل الخامس

مكانة رفاعة رافع الطهطاوي لدى العلماء

(١) عصر محمد علي — عبد الرحمٰن الرافعي بك — صـ ٤٩٨-٤٩٩

(٢) أعلام الصحافة العربية — ابراهيم عبده — صـ ٢٨

(٣) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة — انيس المقدسي — صـ ١١٥

(٤) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن — صالح مجدي — صـ ٣٢

(٥) أعلام و أصحاب أقلام — انور الجندي — صـ ١٦١

(٦) دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر — صلاح أحمد هريدي علي — صـ ٣٢٦

(٧) لمحة تاريخية عن حياة و مؤلفات الشيخ رفاعة بدوي رافع الطهطاوي — فتحي رفاعة — صـ ٦

(٨) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن — صالح مجدي — صـ ٦٥

(٩) لمحة تاريخية عن حياة و مؤلفات الشيخ رفاعة بدوي رافع الطهطاوي — فتحي رفاعة — صـ ٥٣

(١٠) لمحة تاريخية عن حياة و مؤلفات — صالح مجدي — صـ ٦٧

(١١) نفس المصدر — صـ ٨

(١٢) نفس المصدر — فتحي رفاعة — صـ ٥٣

(١٣) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن — صالح مجدي — صـ ٦٧

الباب الثالث

الجوانب الأدبية في حياة رفاعة رافع الطهطاوي

الفصل الأول

رفاعة و إصلاحات في مجال التعليم

مما لاشك فيه أن رفاعة الطهطاوي كان رائداً للنهضة العلمية العربية الحديثة، إنه قام بالخدمات الجليلة في مجال التعليم والتربية كما مهّد السبيل للنشء الجديد إلى العلوم العصرية التي كان العرب لاسيما أهل مصر في غطاء عنها فكشف رفاعة الطهطاوي الغطاء و أنار الظلام السائد، و اتخذ خطوة أولى بهذا الصدد لتوسيع مفهوم العلم والعرفان كما كان مفهوم العلم ينحصر في الدين فقط ٠ فقبل عصره و على الأقل طوال العصور المملوكية العثمانية كان مصطلح 'العلم النافع' خاصاً بعلوم الدين، وأغلب الذين عرضوا بالتفسير لحديث الرسول عليه السلام الذي يقول فيه: " إذا مات ابن آدم انقطع عمله ألا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوله" ٠ قد فسّروا 'العلم النافع' بعلوم الدين، ولكن الطهطاوي، وهو الذي أسهب في شرح هذا الحديث شرحاً عصرياً ٠ قد قرر أن سائر أنواع العلوم، بما فيها علوم الحرف والصنائع داخلية في هذا الباب، فيقول رفاعة الطهطاوي: "فالعلم النافع سواء كان اجتهاداً كإجتهاد المجتهدين وعلومهم المخلدة عنهم أو تدوين المدونيى والواضعين للعلوم الشرعية والألية والفنون و كل علم نافع للملة ولو صنعة، فإنها ذات قواعد و موضوعات، فإنها تدخل في العلم، فيدخل فيه كتب الزراعة والتجارة ونحوها، اختراعا أو تكميلا، فكل هذه الأشياء اختراعها و تدوينها والتأليف فيها و تكثير كتبها بكتابة وطباعة مما يحتمله نحو العلم النافع، ذلك أن الفنون والصنائع عليها مدار انتظام الملك و تحسين الحالة المعاشية للأمم و الآحاد، فالفنون التي هي وسائل ذلك ليس عنها مندوحة، وهي في الشرع

ممدوحة، فلا مانع من دخولها تحت قوله ﷺ: "أو علم ينتفع به" شامل لتعليم المعارف النافعة، سواء كانت علوما أو فنونا أو صناعا أو آلات، فإنها لا تخلو عن مدارك علمية"(١).

وتبعاً لهذا الموقف الجديد من معنى 'العلم' اتخذ رفاعة الطهطاوي موقفا جديداً من معنى مصطلح "العلماء". فقبل عصره كان المراد بالعلماء هم علماء الشريعة فقط ولكن رفاعة الطهطاوي – ورما لأول مرة أيضاً– يفرق بين العلماء و أمناء الدين عند ما يتحدث عن العلماء والقضاة وأمناء الدين، وفي رأيه أن مصطلح "العلماء" ليس مقصوراً على "علماء الشريعة" بل يشمل سواهم من علماء الفنون والصناعات كما يقول رفاعة الطهطاوي: "إن المراد بعلماء الشريعة : العارفون بالأحكام الشرعية والعقائد الدينية أصولا و فروعاً يعني الأحكام المتعلقة بالعمل، عبادات و معاملات، ويلحق بهم أهل العلوم الآلية العقلية التي يتوقف عليها فهم العلوم الشرعية، لأن الوسائل تشرف بشرف المقاصد، وكذلك يحترم ويكرم العلماء المشتغلون بجملة علوم شريفة ينتفع بها و يحتاج إليها في الدولة والوطن كعلم الطب والهندسة والرياضيات والفلكيات والطبيعيات والجغرافيا و التاريخ وعلوم الإدارة والإقتصاد في المصاريف والفنون العسكرية وكل ماكان له مدخل في فن أو صناعة فإن أهله يجب إكرامهم من أهل الدولة والوطن"(٢).

وهكذا قدم رفاعة الطهطاوي نظرة جديدة عصرية و مستنيرة على ميدان العلم والعلماء.

وأما نظرية رفاعة الطهطاوي التربوية و منهجه في التعليم، فإنه يقسم المعارف تقسيماً يتناسب مع سن المتلقي لها، من ناحية، و مع استعداده و ميوله من ناحية أخرى.

فهناك معارف عامة و أساسية يسميها رفاعة الطهطاوي "المعارف الإبتدائية" ولابد لكل إنسان من تحصيلها في بدء عهده بالتعليم وهي كما يقول الطهطاوي: "المعارف الإبتدائية التي يشترك فيها كل فرد من أفراد الجمعية التأنسية وهي : الكتابة والقراء ة، وما يحتاج إليه في دينه من العقائد وغيرها وأصول الحساب ونحو ذلك من

السباحة والعوم والفروسية وأسبابها من ركوب الخيل والرمي واللعب بالرمح والسيف و أشباه ذلك من آلات الحرب ليتمرون على وسائل الدفع عن وطنه والمحاماة عنه ٠ فإن هذه الأشياء من المنافع العمومية التي ينبغي تمرين الأطفال في زمن الشبوبية عليها"(٣)٠

و قد أولى رفاعة الطهطاوي الإهتمام بمراعاة ميول الصبية واستعداداتهم وإتخاذ الميول والإستعدادات معايير لتحديد نوع العلوم و نوع الحرف والصناعات التي يوجهون إلى تحقيقها و إتقانها٠

وكذلك قسم رفاعة الطهطاوي مراحل التعليم العام والتربية العمومية إلى ثلاثة أقسام (١) مرحلة التعليم الأولى يعني مرحلة التعليم الإعدادي (٢) مرحلة التعليم الثانوي (٣) مرحلة درجة العلوم العالية- كما نجد في قوله هذا التقسيم: "أما التربية العمومية فهي ما يتعلمه الذكور والإناث في المكاتب والمدارس وفي سائر مجامع المعارف التي يجتمع فيها للتعليم عدد مخصوص من المتعلمين٠٠ وهذا القسم ينقسم إلى ثلاثة أقسام: تعليم أولي إبتدائي و تعليم ثانوي تجهيزي و تعليم كامل إنتهائي"(٤)٠

ولقد حدد رفاعة الطهطاوي دور كل من المنزل والدولة في عملية التربية و التعليم، فالتربية تنشأ أول ما تنشأ بالمنزل كما يقول "تربية الولد ينبغي أن تكون في بيت أمه و أبيه، وهي التربية اللائقة للبيت٠٠ في أوائل حداثة الأولاد، ذكوراً و إناثاً ينبغي إناطة تربيتهم بالنساء مع ملاحظة الأمهات"(٥)٠

وكذلك عاب رفاعة الطهطاوي اللجوء إلى العقوبات البدنية كوسيلة من وسائل التربية والتعليم وهاجم الذين استخدموها٠

وعندما تعين رفاعة الطهطاوي عضوا دائماً في "قواسيون المدارس" وهو المجلس الذي كان ينظر في السياسة العليا للتعليم ويضع النظم والقوانين والبرامج للمدارس٠ بذل جهوده المشكورة في تنظيم تدريس اللغة العربية و محاولاته الطيبة لإصلاح منهج التدريس، فكان يمتحن الشيوخ والفقهاء كل عام ليتخير من بينهم الأكفياء الصالحين لوظائف التدريس٠

وكـان يـقوم بالزيـاردة للمدارس للتفتيش على هؤلاء المدرسين و اختيار كفايتهم ثم يترك لهم قبل مغادراة المدرسة التقارير الصالحة ٠

وبـالإضـافة إلـى ذلك، قـام رفـاعة الـطهطاوي بتأليف الكتب في هذا المجال ـ كما لاحـظ أن الـكتـب الأزهـرية الـقـديـمة التـي يستـعملها التلاميذ كتب عقيمة لم تعد تصلح لـلـعـصـر الـحـديـث، فـوضـع كتابا جديدا أسماه "التحفة المكتبية في القوائد و الأحكام والأصـول الـنـحـوية" بـطريقة مرضية، و حاول فيه تبسيط القواعد النحوية و بعله في شـكـل جـداول مختلفة ليسهل على الطلبة فهمها و حفظها ٠ وهكذا بذل رفاعة الطهطاوي الجهود القيمة في إصلاح التعليم والتربية ٠

الفصل الثاني

رفاعة و قضية المرأة

رفاعة و قضية المرأة

لاشك أن المرأة نصف المجتمع ولكن إذا نلقي نظرة عابرة على تاريخ مصر، نجد أن المرأة كانت أسيرة البيت ومحبوسة بين جدران البيت ولم تكن تخرج من البيت بل كانت تشغل بالأمور المنزلية ولاتجد وقت الفراغ للقراءة والكتابة وكانت متخلفة وسيئة الحال في كل مجال من مجالات الحياة، حتى أنجبت أرض مصر شخصية فذة رائعة، متعددة الجوانب و مختلفة النواحي وهي شخصية رفاعة رافع الطهطاوي الذي يعد رائدا حقيقيا لحركة نهضة المرأة و تحريرها و رفع مستواها في المجتمع العربي التقليدي، وجاء الطهطاوي بالآراء و الأفكار التي عالجت القضايا المختلفة المتعلقة بشؤن المرأة ويمكن أن نعرض أول قضية هي قضية "المساواة بين الرجل والمرأة" وجدارة المرأة وإمكانياتها في إحراز مساواة حقيقية في بعض الميادين الهامة والحيوية التي كانت حتى ذلك الحين مكراً للرجل لاتقربها النساء. وبهذا الصدر يقول الطهطاوي: "إذا أمعن العاقل النظر الرقيق في هيئة الرجل والمرأة في أي وجه كان من الوجوه وفي أي نسبة من النسب، لم يجد إلا فرقا يسيراً يظهر في الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما، فالذكورة والأنوثة هي موضع التباين والتضاد... لقد كادت الأنثي أن تنتظم في مسلك الرجال.

وكلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم و ظرافتهم، فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغي لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة المتبربرة" (١).

ومن القضايا الهامة التي اتجهت إليها جهود رفاعة الطهطاوي هي تعليم المرأة، فكان رفاعة أول داعية لتعليم المرأة في مصر بل في الشرق كله . فقد ذكر يعقوب أرتين في كتابه عن التعليم العام في مصر أن لجنة تنظيم التعليم في سنة ١٨٣٦م اقترحت العمل لتعليم البنات في مصر وقد كان رفاعة عضوا من أعضاء تلك اللجنة، غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ لأن المجتمع المصري لم يكن على استعداد وقتذاك لقبول هذه الفكرة واكتفى بإنشاء مدرسة المولدات والقابلات(٢) . وتجددت الفكرة بعد ذلك كما أخرج رفاعة كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين" وفيه يدعو للفكرة ويمهد لظواهرها، فيقول: "ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فإن هذا مما يزيدهن أدبا و عقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا و يصلحهن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي"(٣) . وكذلك يرى رفاعة أنه "يحسن الأدب في النساء زيادة لما فيهن من الرقة الطبيعية والمحاسن المعنوية، فنسبة ذكاء المرأة الطبيعي إلى أخلاقها وعوائدها كنسبة لطافتها وظرافتها إلى أعضائها الظاهرة فهي بالأدب جميلة حساً و معنىً"(٤) . ثم تم تطبيق هذه الفكرة وتم إنشاء أول مدرسة لتعليم البنات في مصر على يد "جشم آفت هانم" في سنة ١٨٧٣م . وقد أجاب رفاعة المعارضين لهذه الفكرة وفند آراءهم بدلائله القاطعة وبراهينه المقنعة كما يقدم رفاعة دليلاً أنه كان في أزواجه صلى الله عليه و سلم من تكتب و تقرأ كحفصة بنت عمر وعائشة بنت أبي بكر وغيرهما من نساء كل زمن من الأزمان .

ثم يتحدث رفاعة عن الآفاق التي يفتحها العلم أمام المرأة وكيف يفضل علمها جمالها ويدوم أكثر منه وكيف يرفع قدرها في نظر الزوج ويثمر تربية صالحة متقدمة للأولاد، فيقول: "إن تعليمهن في نفس الأمر عبارة عن تنوير عقولهن بمصباح المعارف المرشد لهن، فلا شك أن حصول النساء على ملكة القراءة والكتابة وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة والإطلاع على المعارف المفيدة هو أجمل صفات الكمال وهو أشوق

للرجال المتربين من الجمال. فالأدب للمرأة يغني عن الجمال لكن الجمال لايغني عن الأدب لأنه عرض زائل وأيضاً آداب المرأة ومعارفها تؤثر كثيرا في أخلاق أولادها. إن البنت الصغيرة متى رأت أمها مقلبة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت والإشتغال بتربية أولادها جذبتها الغيرة إلى أن تكون مثل أمها، بخلاف ما إذا رأت أمها مقبلة على مجرد الزينة والتبرج وإضاعة الوقت بهذر الكلام والزيارات غير اللازمة"(٥) .

وقضية "العمل" بالنسبة للمرأة، وقف الطهطاوي منها موقفاً متقدما بل وثوريا بالنسبة لعصره. فالرجل لم يحدد لتعليم المرأة آفاقا تحدد دائرة حياتها بالمنزل والأولاد والزوج فقط، بل ربط العلم عندها بالعمل الذي يمكن أن تتعاطاه و قال: "وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها و طاقتها. فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل فالعمل يصون المرأة عما لايليق ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء، فإن المرأ ة التي لاعمل لها تقضي الزمن خائضة في حديث جيرانها وفيما يأكلون و يشربون و يلبسون و يفرشون وفيما عندهم وعندها وهكذا"(٦) .

ويحاول الطهطاوي أن يقدم الدلائل على إباحة العمل للمرأة تاريخيا و شرعيا كما يقول إنه "ساغ لنبي الله شعيب أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية بدون أن يقدح ذلك في حقه بشئ حيث لامفسدة في ذلك لأن الدين لايأباه في البد ولا في الحضر ومروء ة أهل البدو لاتأباه، وكذلك نساء النبي ﷺ ونساء أصحابه ﷺ كن يسعين على عيالهن ويخدمن أزواجهن يمتهن أنفسهن بل و يقمن بالغزو مع الجيش المقابل وفي الصحيح قالت أم الربيع كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى إلى المدينة ونداوي الجرحى"(٧) .

وبالنسبة لحجاب المرأة نجد أن قضية "سفورها" لم تكن مطروحة أصلا على عصر الطهطاوي ومجتمعه بل كان الطهطاوي يؤمن بالحجاب الشرعي أى أن تكشف المرأة وجهها ويديها فقط ٠ إذ لايحل لها شرعاً كشف ما عدا ذلك إلا في الضرورات، وكان يطلب أن تخرج المرأة مع ستر أعضائها التي تبح الشريعة كشفها للأجانب من منزلها إلى ميادين الحياة وساحاتها ومجالاتها العملية ٠ وكذلك نجد عند الطهطاوي ما يقطع بإباحة لقاء الشاب بالشابة في العمل إذا توافرت الثقة المؤسسة على حسن التربية فيهما وقد جاء الطهطاوي لذلك بالمثل الذي يتحدث عن لقاء إبنة نبي الله شعيب عليه السلام بموسى عليه السلام: "فلقد قال شعيب عليه السلام لإحداهما (إحدى ابنتيه) فادعيه (أى موسى) لي فأرسلها شعيب عليه السلام إلى موسى عليه السلام مع أنها شابة وهو شاب لأنه عليه السلام قد علم بالوحي أو من حسن التربية طهارتها وبراء تها، فكان يعتمد عليها"(٨)٠

أما بالنسبة لإشتغال المرأة بالمناصب السياسية العليا فإن الطهطاوي يقف الموقف الشرعي الذي يمنع من ذلك ويقول: "إنه قد قضت الشريعة المحمدية و قوانين غالب الممالك بقصر السلطنة على الرجال دون النساء٠ وأن النساء لايتقلدن بالرتب الملوكية ولايلبسن التاج الملوكي بل تكون المملكة متوارثة في سلسلة الذكور إلا فيما ندر من الممالك المبيحة لذلك٠ وأما القضاء فليس لهن فيه حظ ولا نصيب"(٩) ٠

ومن الحقيقة أيضاً أن قضية اشتغال المرأة الشرقية بالعمل السياسي لم تكن مطروحة ومثارة في عصر الطهطاوي في الشرق على وجه الإطلاق بل ولا في الغرب، إذا نحن أمعنا النظر في هذه الحقائق التي تقول: إن أول مؤتمر عقد للمطالبة بحقوق المرأة السياسية في أميركا سنة ١٨٤٨م٠ ويعتبر الأمريكيون أول مؤتمر من نوعه في التاريخ كما يعتبرونه بداية الحركة النسائية في العالم و منذ ذلك التاريخ نشطت حركة تشكيل النوادي والجمعيات النسائية حتى بلغ عددها في عام ١٨٩٠م خمسة عشر ألف نادٍ،

وكانت الحركة تستهدف إعداد المرأة لتؤدي دورها في مختلف مجالات الحياة عند ما تنتهي التغييرات الاقتصادية في العالم إلى إزالة كثير من الأعمال المنزلية.

واطرد نمو حركة المطالبة بحقوق المرأة حتى حققت أهدافها في كل من انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية. فبعد الحرب العالمية الأولى و في عام ١٩١٨م بالذات منحت المرأة في إنجلترا حقوقها السياسية، و منحت في العام التالي حق العمل والتعيين في مختلف وظائف الدولة، وفي الوقت الذي كان الطهطاوي يكتب فيه آراء ه تلك في كتابه "المرشد الأمين" لم يكن الدستور الأمريكي الذي وضع سنة ١٨٧٠م، يعترف بحقوق المرأة السياسية وهو لم يعترف بها إلا في التعديل الذي أدخل عليه سنة ١٩٢٠م. ففي عام ١٩٢٠م، حصلت المرأة الأمريكية على الحقوق السياسية، وفي عام ١٩٤٣م تمت مساواتها بالرجل في كل مجالات العمل، وفي كل دول أوربا لم تنل المرأة حقوقها السياسية إلا في القرن العشرين... في فرنسا سنة ١٩٤٥م، وفي بلجيكا سنة ١٩٤٦م(١٠).

وبالإضافة إلى ذلك قد أطال الطهطاوي الكلام في قضية الحب. ولقد فتح الطهطاوي فتحا جديدا في الحياة الإجتماعية العربية الحديثة عندما قرر شرعية "الحب" بالنسبة للبنت، وطالب الآباء والأمهات بمراعاة حبها وهواها عند تزويجها فعنده أن من أحسن الإحسان إلى البنات تزويجهن إلى من هو ينه وأحببنه"، وقد دعا إلى قيام الزواج وتأسيس المنزل على أساس من الحب فإن الحب عنده فن لا شهوة وبينه و بين الشهوة من البعد بقدر ما بينه وبين الصداقة من علاقات. فهو يقول: "إن معرفة إرضاء أحد الزوجين للآخرفن نفيس وإن كان صعبا في حد ذاته لأنه يستدعي كمال التربية والإنصاف بالعدل وقوة العقل وذكاء الفطنة واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما و معرفة الإعتناء بالوسائل التي تستدعيها الصداقة بين الزوجين لاشتراكهما في المنفعة العمومية. فينبغي أن يكون الحب الموجود في قلب المرأة والرجل بعضهما لبعض عبارة عن وداد خالص"(١١).

ثم نرى أن الطهطاوي قد تعرض لموضوع تعدد الزوجات، فينم فكره في هذه القضية عن تقدمه واستنارته بالنسبة لعصره، ويمكن لنا أن نستخرج من أقواله أنه يعتبر تعدد الزوجات مكروهاً والإقتصار على الزوجة الواحدة مندوبا وفي ضرورة وجود علة ظاهرة تدعو للتعدد ولكنه يشترط تحقق العدل بين الزوجات، فهو يقول : "وندب أن لايزيد على إمرأة من غير حاجة ظاهرة، والتعدد قد أباحه الله لطفاً بالذين تتجاوزبهم الرغبة الجنسية الزوجة الواحدة لكن بشرط العدل بين الزوجات فقال تعالىٰ: "فإن خفتم أن لاتعدلوا فواحدة"(١٢).

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: من كان له إمرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل ثم يورد الطهطاوي قول الحكماء: "إن من الحزم أن لايغتر الرجل بما تظهر له المرأة من عدم غيرتها والرضى بأن يتزوج عليها"(١٣).

وكذلك يقدم الطهطاوي للرجل والمرأة مجموعة من الوصايا والنصائح ويحدثهماعن مجموعة من القواعد التي تؤكد الحب بينهما و توطد أسبابه ودعائمه. فيكشف لنا من خلال وصاياه هذه عن مفكر مؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة في هذا الميدان، فهو يقول: "فعليهما أن يجتهدا في تحببهما لبعضهما حباتاما، وأن لايذم أحدهما الأخر في غيبته وأن لايغضبا في وقت واحد وأن لايكلم احدهما الآخر بصوت عالٍ، وأن يخضع كل منهما لإرادة الآخر، الرجل بالحب والمرأة بالطاعة– وأن لايلوم أحدهما الآخر على خطأ ماض، وأن لايحوج أحدهما الآخر إلى تكرار الطلب في حاجة، وأن يتمسك أحدهما بالآخر ولو كلفه فوات من سواه، وأن لا يبكّت أحدهما الآخر، وأن لا يفارق أحدهما الآخر ولو يوما واحداً من دون أن يودعه بكلمة محبة، لكي يتفكره بها مرة الغياب، وأن لايلتقيا من دون ترحيب وأن لايدعا الشمس تغرب على غضب أو زلة، وأن لايدعا زلة إرتكباها تمضي من دون إقراربها، وطلب السماح عنها، وأن لايتأوها على ما فات، بل يرضيان بما يوجد، وأن يجعلا الصدق دأبهما في معاملة أحدهما الآخر"(١٤).

وكان الطهطاوي مخلصا في أفكاره العميقة التي عالجت قضايا الأمة الإجتماعية المزمنة وفي مقدمتها العلاقات بين الرجال والنساء.

الفصل الثالث

رفاعة المعرب والمترجم

إن الترجمة قطاع ضخم في الأدب العربي المعاصر، له خطورته وأثره البعيد المدى. فهو النافذة التي تصل إلينا منها صورة آداب الشرق والغرب وثقافاته و آرائه وهي المرآة التي نشاهد فيها حياة الآخرين وأفكارهم ولذلك كان لهذا القطاع أهميته الكبرى، من ناحية مضمون ما ينقل و وسائل نقله وترجمته.

وقد مر الأدب العربي قديما بتجربة الترجمة حين نقل آثار اليونان والرومان و الفرس واختار منها الجوانب الإيجابية ذات الأثر النافع للشخصية والحياة العربية الفكرية وقد تخير العرب في حركة النقل الأدبي ما هم في حاجة إلى نقله من فنون المعرفة وتركوا الفنون الأخرى التي رأوا أنه لاحاجة لهم بها. وكان عملهم خطيرا بعيد المدى في تنمية الثقافة العربية وتطوير الحضارة الإنسانية، فقد استطاع العرب بعد ذلك أن يضيفوا كثيراً إلى هذه الثقافات والعلوم.

أما الترجمة في الأدب العربي المعاصر فقد جاء ت في ظل النفوذ الأجنبي الذي سيطر على العالم العربي كله خلال القرن التاسع عشر..

فكانت الحملة الفرنسية – إذن – نقمة في طيها نعمة، فقد ساعدت المصريين على الشعور بأنفسهم والتطلع لآفاق أخرى من المعرفة وضروب جديدة من الإجتماع والعمران. فما هو إلا أن تخلص المصريون من آثار هذا الغزو الأجنبي حتى أظهروا إرادتهم القومية في خلع الوالي التركي وتولية آخر مكانه هو "محمد علي" الذي ظلت أسرته تتولى حكم مصر إلى منتصف القرن الماضي.

كانت هذه بداية لمرحلة مثمرة من التجديد الشامل في نواحي الحياة القومية المصرية، فوجهت الحكومة المصرية العناية إلى تقوية الجيش وإعداده على أساس حديث و بناء الأسطول وتأسيس المدارس الضرورية لتلك النهضة: من حربية وطبية و هندسة وغيرها. ثم إنشاء مدارس التعليم العام وإرسال البعثات إلى الغرب للتخلص في مختلف فروع المعرفة وبدأت حركة قوية من الترجمة والإستعانة بالمطبعة لنشر الكتب الثقافية من مؤلفة ومنقولة.

"وكان من آثار هذه الحركة التجديدية العامة أن أخذت اللغة العربية تستجيب لعوامل البعث والنماء وأن أخذ قاموسها يزداد و يتسع، من طريق ترجمة المصطلحات والتصورات في دراسة الطب والهندسة والفنون الحربية والبحرية والصناعية والزراعية وما إليها، ومن طريق إحياء المصطلحات العربية القديمة التي وضعها العلماء العرب أيام نهضتهم الزاهرة، ثم من طريق ترجمة القواميس والكتب الدراسية الضرورية من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية"(١) .

والحركة اتسعت آفاقها وأخذت آثارها في الظهور في نواحي اللغة والفكر المصري على يد رفاعة الطهطاوي ورجال مدرسته، الذين كانوا يعدون إعدادا فنيا خاصاً في معهد أنشئ لهذا الغرض، هو مدرسة الألسن وكان زعيمهم رفاعة الطهطاوي ينسق جهودهم ويشرف على إخراج أعمالهم ويفتح أمامهم سبل العمل المثمر.

و سنعرض فيما يلي موجزا سير ة رفاعة الدراسية واتصاله بثقافة الغرب، مبرزين أهم النواحي التي اتجه إليها في ترجمته وتأليفه، و وجّه إليها أنظار أصحابه وتلاميذه من خريجي مدرسة الألسن.

كان رفاعة الطهطاوي أيام دراسته في الأزهر كثير التردد على الشيخ حسن العطار ليتلقى عنه الأدب وبعض العلوم العصرية كالتاريخ والجغرافيا. وقد أعجب الأستاذ بتلميذه فلما طلب منه وإلى مصر محمد علي أن ينتخب من علماء الأزهر عالما ذا

أهلية و لياقة ليكون إماما للبعثة العلمية المصرية الأولى إلى باريس ٠ اختار رفاعة الطهطاوي لهذه المهمة فسافر مع البعثة في سنة ١٨٢٦م، ولم يكد يصل فرنسا حتى شمر عن ساعد الجد في دراسة اللغة الفرنسية فلم يمض عليه عام حتى بدأ يحاول الترجمة منها إلى اللغة العربية، وقد لفت بنشاطه وتحصيله أنظار أساتذته ٠ فكافأوه على جده بهدايا من الكتب، و وجهوه إلى قراءات واسعة في تاريخ الأمم القديمة وأساطيرها وأخلاقها وعوائدها وآدابها كما أخذوه بدراسة الحساب والهندسة والجغرافيا بفروعها وبعض الأعمال الأدبية المهمة لمشاهير الكتاب والشعراء الفرنسيين مثل: "فولتير" و "راسين" و "روسو" هذا إلى دراسات منوعة في السياسة والفلسفة وقراءات موسعة في المجلات والصحف ٠ وهكذا جمع رفاعة الطهطاوي الثقافتين الدينية والعلمية كما يقول أنيس المقدسي في كتابه: "هذا الرائد الكبير يجمع في نفسه بين ثقافتين مختلفتين— الأولى دينية، وهي التي نشأ عليها في الأزهر وظل حريصا عليها، شديد التمسك بها طول حياته، والثانية علمية، وهي التي أدرك فيها التطور، فاندفع في سبيل لم يعهده في الأزهر وأطل على آفاق لم يرها من قبل، و عن ذلك نشأت رغبته الشديدة في نقل العلوم العصرية، من طبية و هندسية وتاريخية وجغرافية وسواها إلى اللغة العربية، ثقة منه أنه بنقل هذه العلوم يخدم أمته وجيله أفضل خدمة وهذا عدا ما أشرف على ترجمته مما نقله سواه وهو شئ كثير جداً"(٢) ٠

والثقافة الغربية الواسعة التي فتحت أبوابها لهذا العالم العبقري والتي عاش في جوها خمس سنوات، هيأت رفاعة ليكون الرائد الأول في ترجمة آثار الفكر الغربي إلى اللغة العربية وليضع اللبنة الأولى في بناء تجديد تلك اللغة في نهضتها الحديثة، وقد ترجم في أثناء إقامته في فرنسا عدداً من الكتب صغيرها و كبيرها في موضوعات متعددة: تاريخية وجغرافية وسياسية وأسطورية وغيرها ٠ على أن من أهم ما أفاده في ثقافته اتجاهه إلى الموازنة بين اللغة الفرنسية وآدابها وبلاغتها من جهة، و بين اللغة العربية وآدابها وبلاغتها من جهة أخرى، وكان لذلك أثره بعد فيما حاول رفاعة من

تجديد التأليف في قواعد اللغة العربية، وفي الدعوة إلى التيسير والبساطة والوضوح في أسلوب كتابتها الأدبية وتتجلى تلك النواحي من دراسات رفاعة الطهطاوي وثقافاته واتجاهاته في كتاب رحلته "تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز" وهو كتاب ألفه أثناء إقامته في فرنسا وأتمه بعد عودته إلى مصر.

عاد رفاعة إلى مصر سنة ١٨٣١م وعهدت إليه الدولة لكثير من المهام و المسؤليات التثقيفية في البلاد فقام بها على خير وجه وكل تلك المهام تتصل اتصالا مباشرا أو غير مباشر بالتطور الحديث في اللغة العربية وأدبها. فقد تولى شؤن الترجمة وتدريس بعض المواد باللغة العربية في مدرسة الطب كما تولى مثل ذلك في مدرسة المدفعية ولم يلبث أن قدّم إلى أولي الأمر مشروعا بإنشاء مدرسة للألسن، تقوم على تخريج المترجمين والمدرسين. فافتتحت المدرسة في سنة١٨٣٥م، وأخذت تنمو و تتسع في أغراضها وأقسامها، وقام رفاعة الطهطاوي قي هذه المؤسسة الجديدة بدور المشرف والمؤجّه والمشارك في نواحي نشاط طلبتها وخريجها: من ترجمة وتأليف وتدريس، ولاسيما في قلم الترجمة الذي أنشأ في المدرسة ليكون مركزا للمتخرجين، نتلاقي فيه جهودهم في ترجمة العلوم والفنون بين مختلف اللغات من فرنسية وإيطالية و تركية وعربية.

وهكذا كان رفاعة الطهطاوي شخصية بارزة في الحركة الثقافية والتعليمية وفي نهضة التأليف والترجمة، كما كان رائدا من رواد الصحافة في مصر الحديثة، فقد عهد إليه بعد عوته تحرير الأصل العربي لصحيفة "الوقائع المصرية" وكان له في الرقي بالصحيفة أثر واضح.

"وكان رفاعة الطهطاوي أكثر اتفاقاً في الترجمة من أقرانه من المصريين وغير المصريين لما أنه كان يتقن اللغة العربية بفضل دراساته الأزهرية ويتقن الفرنسية أيضاً، وقد كان ذلك سبباً في تفوقه على هؤلاء في الترجمة وكانت ترجمة صحيحة

سليمة بليغة لاتحتاج إلى مراجعة أو تصحيح من بعض شيوخ الأزهر، بمثل ماكان يحتاج الأمر بالنسبة لترجمة غيره من غير المصريين أو غير الأزهريين، ولهذا كان الشيخ رفاعة يقوم إلى جانب الترجمة بالتصحيح والتحرير لما يتجربه الآخرون"(٣) .

وقد اختار رفاعة الطهطاوي في ترجمته أسلوبا علميا خالصاً لأن الكتب التي ترجمها كانت كلها كتبا علمية، غير أنا نلاحظ أن رفاعة والمتجرمين الآخرين قد ساروا باللغة العربية حظوة إلى الأمام. فقد تخلصوا في كتبهم المترجمة من قيود المحسنات البديعة، وخاصة السجع، التي ظلت مسيطرة على الكتب العربية قرونا طويلة، وكان هذا التخلص شيئا طبيعيا، إذا لم يكن من الممكن أن يلتزم أى مترجم السجع في كتاب بأكمله، يقيده فيه النص الأجنبي الذي ينقل عنه، أو المصطلحات والتعريفات العلمية التي يترجمها.

وكان رفاعة الطهطاوي يهدف في ترجمته هدفا أساسيا إلى نقل ما عند الغرب والغربيين من علم جديد و من نظم وقوانين جديدة في الجيش والأسطول والمدارس والمستشفيات والإدار ة الحكومية وكذلك كان يهدف إلى نقل العلوم الحديثة المختلفة إلى اللغتين العربية والتركية ليسهل على الطلاب والمدرسين استعمالها ودرسها في المدارس الحديثة(٤).

لقد خدم رفاعة الطهطاوي اللغة العربية خدمة لاتنكر، فقد قام في حقلي التعريب والترجمة بنفسه بمعالجة مئات المصطلحات العلمية والفنية من طبية وهندسية وطبيعية واجتماعية وحقوقية و جغرافية وسواها فينقب بلا ملل مستهدياً إلى ما يقابلها بالعربية، فإذا وجد ذلك استعمله وإلا ترجمه، وإذا تعذرت الترجمة عرّبه ناقلا إياه بلفظه إلى العربية مع تغيير قليل.

ومن المعلوم أن كثيرا مما وضعه قد طواه الزمان بعد أن ترقت لغة الإنشاء، وخصوصاً في قرننا الحالى وحل محله ألفاظ وأوضاع أصح وأفضل، مثال ذلك ترجمته للألفاظ الأفرنجية للتالية:

اللفظة الأفرنجية	ترجمة الطهطاوي	ترجمتها اليوم
La musee	خزانة المستغربات	المتحف
Theatre	خيالي	المسرح
Constitution	الشرطة	الدستور
Cape of Good Hope	رأس عشم الخير	رأس الرجاء الصالح

وقد توكأ كثيرا على التعريب فحشا كلامه العلمي بكثير من الألفاظ الأجنبية التي نبذها المحدثون، على أنه قد ترك كثيرا من المصطلحات التي وضعها أو اختارها وفضلها ولاتزال حية شائعة الإستعمال كميدان (Place) بالفرنسية، أطلس (Atlas) اعتدال (مساوي الليل والنهار) ميزان الحرارة (Thermometre)، طوبوغرافية (Tobographic) وعشرات غيرها(٥).

لقد تأثر الفكر العربي بما ترجم من الآداب والعلوم، ويقول جاك تاجر في كتابه بهذا الصدد: "وكان من أثر هذا أيضاً تغير طريقة الكتابة طوعاً لتغير طريقة التفكير وتقصير الجمل وفصل العبارات وحبس كل واحدة منها على أداء معنى واحد، واعتماد لون طريف في ترتيب الكلام و تبويبه وسوق المقال في الغالب لأداء فكرة واحدة واستحداث صيغ جديدة لأداء معان جديدة والتجويز بكثير من المفردات لإصابة مالا تطوله بأصل الوضع اللغوي"(٦).

وحصر جرجي زيدان هذا التطور في ١٠ نقط وهي فيما يلي:

١- سلالة العبارة وسهولتها بحيث لايتكلف القارئ أعمال الفكرة في تفهمها.

٢- تجنب الألفاظ المهجورة والعبارات المسجعة إلا ما يجيئ عفواً ولايثقل على السمع.

٣- تقصير العبارة وتجريدها من التنميق والحشو حتى يكون اللفظ على قدر المعنى.

٤- ترتيب الموضوع ترتيبا منطقيا.

٥- تقسيم المواضيع إلى أبواب و فصول.

٦- تذييل الكتب بفهارس أبجدية.

٧- تسمية الكتب باسم يدل على موضوعها.

٨- تنويع أشكال الحروف على مقتضى أهمية الكلام، فيجعلون للمتن حرفا وللشرح حرفا وللرؤوس حرفاً.

٩- إذا أرادوا إسناد الكلام إلى كاتب أشاروا إلى ذلك في ذيل الصحيفة.

١٠- فصل الجمل بنقط و علامات(٧).

وترجم رفاعة الطهطاوي في عهد محمد علي مؤلفات كثيرة عدا ما صححه من أعمال سائر المترجمين ومن مترجماته:

(١) نبذة في تاريخ الإسكندر الأكبر.

(٢) كتاب دائرة العلوم في أخلاق الأمم و عوائدها.

(٣) تعريب كتاب المعلم فرارد في المعادن النافق لتدبير المعايش، استخرجه من الفرنسية إلى العربية طبع سنة ١٢٤٨هـ.

(٤) مقدمة جغرافية طبيعية.

(٥) قطعة من كتاب العلامة ملطبرون في الجغرافية (وهو الجزء الأول من الكتاب ترجمه وهو في باريس).

(٦) نبذة في علم الهيئة.

(٧) أصول الحقوق الطبيعية التي يعتبرها الأفرنج أصلاً لأحكامهم.

(٨) نبذة في الميثولوجيا.

(٩) نبذة في علم سياسة الصحة.

(١٠) الجغرافية العمومية تأليف المسيح فيكتور أدولف ملطبرون الجغرافي الفرنسي ٠

(١١) كتاب قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر، ترجمة في سنة ١٣٤٥هـ، وهو في باريس ٠

(١٢) تاريخ قدماء الفلاسفة طبع سنة ١٣٥٣هـ ٠

(١٣) التعريبات الشافية لمريد الجغرافية، انتخب فيها خلاصة الكتب الجغرافية الفرنساوية المطولة، وهو مجلد ضخم ترجمه من الفرنسية إلى العربية لتدريس الجغرافية في المدارس المصرية، وأضاف إليه أيضاً إيضاحات واسعة، طبع سنة ١٣٥٤هـ ٠

(١٤) جغرافية عمومي في كيفية الأرض، طبع سنة ١٢٥٤هـ ٠

(١٥) المنطق تأليف دي دومارسي، طبع سنة ١٢٥٤هـ ٠

(١٦) تاريخ المصريين القدماء، طبع سنة ١٢٥٤هـ ٠

(١٧) أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر و توفيق بني اسماعيل من تأليفه، جمعه من التواريخ القديمة والجديدة عربية كانت أو غير عربية فيما يخص أزمان مصر مما يتعلق بالمدينة والعسكرية من الوقائع، طبع سنة ١٢٥٨هـ ٠

(١٨) كتاب أتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات في بلاد أوربا، ترجمة عن كتب أوربية ٠

(١٩) مبادئ الهندسة، ترجمة كتاب ساسير، طبع سنة ١٢٥٩هـ ٠

(٢٠) مواقع الأفلاك في وقائع تليماك، تأليف الكاتب فينولون رئيس أساقفة كمبراي، نقلها من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية مع بعض التصرف وهو في الخرطوم و أعيد طبعه في بيروت ٠

(٢١) ترجمة مونتيسكيو، وقال عبد الرحمن في هذا الصدد: قرأت للأستاذ الشيخ عبد الكريم سليمان رسالة، يقول فيها إنه سمع من ابن رفاعة بك أن أباه ترجم هذا الكتاب ورأيت في قصيدة لرفاعة بك في "مناهج الألباب المصرية" ما يؤيد ذلك إذ يقول عن نفسه ٠

على عدد التواتر معرباتي تفى بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد و هو عدل و مونتسكو يقر بلا تمادي

(٢٢) الشرط La charte ترجمة للدستور الفرنسي الذي وضعه لويس الثامن عشر، وكانت هذه المؤلفات القيمة التي ترجمها رفاعة الطهطاوي من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية، ويقول أحد الكتاب الفرنسيين في دائرة المعارف الإسلامية:

"كان رفاعة أحد كبار كتاب العربية في القرن التاسع عشر، ارتبط اسمه بالنهضة القيمة في الحركة الأدبية والعلمية للشرق الحديث، و بنفسيته البحاثة وذكائه القادر، خلف لنا عملا جديرا بالتقدير، يعالج مختلف النواحي من تأريخ وجغرافيا و قواعد نحو و حقوق و أدب وطب وغير ذلك ولكى نقدر هذا العظيم الذي قام به يجب أن نذكر أنه في فجر هذا القرن كان العالم العربي يغط في شبه نوم، منفصلا عن أوربا المثقفة بجانب سميك، ولم يكن في هذه الظلمة التي تلف هذا العصر سوى ضوء خافت يشعه الأزهر(٨)" ٠

الفصل الرابع

آثار رفاعة رافع الطهطاوي والتعريف ببعض كتبه

كان رفاعة الطهطاوي أحد أركان النهضة العلمية العربية وإمامها في مصر و حلقة الإتصال بين الثقافة الفرنسية والثقافة العربية في القرن التاسع عشر، وبعد عودته من فرنسا إلى مصر نقل ألوان الثقافة في شتى نواحيها إلى اللغة العربية عن التأليف والترجمة ووضع بذلك أساس النهضة العلمية في مصر الحديثة .

وقد تزك رفاعة الطهطاوي للأجيال القادمة إنتاجا ضخما من مؤلفاته و مترجماته، تنوعت ألوانه و تعددت ميادينه، فقد ألف رفاعة الطهطاوي في علم الكلام بأن نظم أرجوزة فيه، و كتباً في الفقه، بحثا في المذاهب الأربعة و رسالة في الإجتهاد والتقليد وأخرى في البدع المتقررة في الشيع المتبررة، وله كتب فيالنحو و في علم الحديث والبلاغة والأدب والإجتماع والسياسة والتربية و الهندسة والحساب والكيمياء والتاريخ و جملة من الكتب تبلغ تسعة و عشرين كتابات .

أما الآثارالفكرية التي خلفها رفاعة الطهطاوي فإن نصيب الترجمة منها أكبر حجما من نصيب التأليف ، وإن كانت مؤلفاته تضعفي مقدمة المؤلفين، فلقد بدأ رفاعة الطهطاوي بالترجمة منذ كان مبعوثا في باريس بل إن "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" الذي هو تأليف أصلا، قد تضمن فصولا هي ترجمة في الأساس و كما كان رفاعة الطهطاوي مفكرا موسوعيا في إبداعه كان كذلك في ترجماته، إذ على الرغم من دراسته الإنسانية الأزهرية الأولى، و ميله الأدبي وحبه للتاريخ والجغرافية الذي جعله يقول: "إننا قد تكفلنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافية بمصر السعيدة"(١)، إلا

أن ترجماته قد غطت أغلب الميادين، فترجم في التاريخ والجغرافيا و في الطب والعلوم والقانون والهندسة كما ترجم في الأدب والشعر وغير ذلك من العلوم والفنون التي أعجبته في تطوير الثقافة العربية ٠

أما الآثار الفكرية للطهطاوي في حقل التأليف والخلق والإبداع، فنذكر بعض النقاط والمميزات عند الطهطاوي المؤلف، وعلى سبيل المثال:

(١) فالهدف العام والأساسي والجوهري الذي إستهدف الطهطاوي من كل جهوده التأليفية وهو بعث الأمة العربية و تنويرها، نراه محوراً لكل المؤلفات التي أبدعها هذا الرائد العظيم، ففي كتابه الأول (تخليص الإبريز) الذي كتبه عن رحلته إلى فرنسا، ينبه على أنه قد قصد من ورائه "كشف القفاع عن محيا هذه البقاع" لا من باب المتعة والترف وأحاديث السائحين وإنما ليبقى دليلاً يهتدي به إلى السفر إليهما طلاب الأسفار"(٢) ٠

إن مكانة رفاعة الطهطاوي من حركة التأليف العربي هي مكانة بارزة و متميزة بلاشك، وليس حجم مؤلفاته ـ وهو كبير ـ هو الذي يضعه في هذا المكان البارز والمتميز، وإنما الموسوعية الإحاطة التي لم تقف عند علوم الدين و فنونه فقط بل ضمت إلى ذلك العلوم العربية وأيضاً العلوم الدينوية المتعلقة بصناعة الحضارة والتمدن وأمور المعاش اللازمة الجماعات والأفراد ٠

(٣) كما كان رفاعة الطهطاوي محققا بالمعنى العلمي ـ عندما يستشهد بكلام الآخرين أو يقتبس عنهم العبارات، يذكر أسماء هم حيناً و يكتفي بصفاتهم أو جنسياتهم حينا آخر ٠ ثم يضع كلمة 'إنتهى' ختاماً للعبارات التي إقتبسها من مصادره و مراجعه، وقد يشير إلى أسم الكتاب الذي رجع إليه وإذا تصرف في أسلوب العبارة التي إقتبسها حرص على أن يذكر أن إقتباسه هذا بتصرف ٠ فكان رفاعة الطهطاوي محققا لاينسب لنفسه ما ليس لها ولا يخلط آراء ه بآراء الآخرين ٠

(٤) إن أسلوب رفاعة الطهطاوي في التأليف يتميز بميزات هامة تستحق دراسة مستقلة و مستفيضة تتضح بها معالم التطور اللغوي والأدبي والتعبيري الحديث ٠

ا- فإنه يلتزم السجع أحيانا و يتخلص منه أحيانا و كثيراً ما يلزمه عند ما يمدح أو عندما لاتكون للموضوع حرار ة ولا للفكر ة قوة، أما عند ما تتدفق الأفكار بقوة، أو يكون الموضوع علمياً وعصريا فكثيرا يهجر السجع - وهو في ذلك يعبر بصدق عن موقعه من حركة التطور الحديثة فهو في الأسلوب مرحلة إنتقال من عصر الركاكة والتزام المحسنات البديعية بلا هدف ولا غاية إلى مرحلة الجزالة و عودة الروح العربية الفتية إلى أسلوب التعبير ٠

ب- وهو يحفل كثيراً بالإستطرادات والإستشهادات بالشعر العربي وقصص الأولين والقدماء لأغراض تتعلق بالترويح عن القاريئ و كوسائل تعين على بلوغ الغرض التربوي المقصود ٠ وهذه الإستشهادات - وخاصة الشعرية - التي تزخر بها مؤلفات الطهطاوي تعكس ثقافية أدبية و موسوعية غير عادية ٠

وبعد هذه النبذة الوجيزة عن خصائص الآثار الفكرية رفاعة الطهطاوي نود أن نعرّف بعض مؤلفاته القيمة التي لعبت دورا هاما و رياديا في النهضة العربية الحديثة ٠

(١) تخليص الإبريز في تلخيص باريز

وهو الكتاب الذي كتبه رفاعة الطهطاوي أثناء إقامته في باريس مصوراً فيه رحلته إليها، و قد أبدع فيما تناوله فيها من وصف ما شاهده منذ مغادرته مصر إلى عودته إليها فوصف أحوال فرنسا وأخلاق أهلها و عاداتهم و علومهم و فنونهم وأساليب حكمهم و معيشتهم و أحوالهم الإجتمعية والسياسية و قد تم ما كتبه في هذه الرحلة عن ميله إلى البحوث التاريخية والجغرافية فإنه يقف عند كل بلد يمر به فيتحدث عن ماضيه وحاضره و طبيعته مع دقة في الملاحظة و رقة في الأسلوب ووفرة في مادة اللغة

و تعبيرها متعمقا في بحثه مستقصيا قي حديثه و يدل على شغفه بالعلم إسهابه في وصف علوم فرنسا و علمائها و مكاتبها وجمعياتها العلمية و مدارسها و معاهدها و ثروتها العلمية من الكتب والمجلدات والصحف(٣).

و قد دون منه ملاحظاته عن العادات الأوربية و تعليقه عليها و مع أنه نشأ في ريف الصعيد و تربى في الأزهر تربية دينية إلا أنه استطاع أن يحكم على بعض العادات الغربية بروح تقدمية خالية من التزمت والتعصب.

فقال مثلاً عن سفور المرأة أنه لايجلب الفساد بطبيعته و إنما ينشأ الصلاح والفساد من التربية الصالحة أو الطالحة و على علّق على وجود المرأة الفرنسية في المجتمع بأنها تكسبه جمالاً و تملؤه أنسا و بهجة و بعد أن تحدث عن الفروق في تجميل المنازل و زخرفتها قال " ثم أن جميع هذه التحف يكمل الألسن بها بحضور سيدة البيت، أي أن زوجة صاحبه التي تحيي الضيوف أصالة و زوجها يحييهم بالتبعية"(٤).

وقد أعجب والي مصر محمد علي باشا بها و سرّ لها و أصدر أمره بقرائتها في قصوره و سراياته و توزيعها بعد طبعها على الدواوين والوجوه والأعيان، والمواظبة على تلاوتها للإنتفاع بها في المدارس المصرية و قد انتفع بها الخاص والعام بما فيها من الفوائد والتعليمات الأوروبية والأزهرية (٥).

(٢) مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية

فقد قام رفاعة الطهطاوي في هذا الكتاب القيم بجمع المعلومات الهامة عما أسماه "المنافع العمومية" التي تتسع بها دائرة التمدن الوطني وقد جمعها من الكتب العربية اليافعة و اختارها من مؤلفات الفرنساوية النافعة مع ما سنح بباله و أقبل على خاطره، و عزز كل ذلك بالآيات البينات والأحاديث الصحيحة والدلائل المبينات، و ضمنها الجم الغفير من أمثال الحكماء و آداب البلغاء وكلام الشعراء.

وكـذلك تـحدث فيه عن المسائل الإجتماعية وقضايا المجتمع الهامة، وقد حدد فيه رفـاعة الـطهـطـاوي وسيـلتيـن لـلـنهوض بالمجتمع · الأولى معنوية و تقوم على تهذيب الأخـلاق والتـأديـب بآداب الدين، والثانية مادية تقوم على إستغلال الثروة والعمل على رفع مستوى المعيشة وحرص على أن يبين أن طريق كسب المال يجب أن يكون من غير مهانة ولا عسف وأن يكون إنفاقه في المصاريف الحميدة والعاقبة الجميلة الذكر ·

وقد نادى فيه رفاعة الطهطاوي بقيمة العمل و عدّه أساس تقدم الأمم وارتفاع شأنها و قـام بـالمقارنة في ذلك بين حالة أفريقيا و أوروبا، فذكر أن أوروبا ارتفع شأنها بسبب الـعـمـل والـنشـاط والـحـركة الدائبة، وأن أفريقيا ظلت مدة طويلة متأخرة و متخلفة لأنها اعتمدت على خصوبة أرضها دون العمل، ثم تطرق رفاعة الطهطاوي إلى المباحث الجديدة الهـامة حـول تـدبير المملكة وإدارتها، يعني فن السياسة ، وقد إقترح بأن يخصص له مكان فـي تثـقيف الـنـاشـئين حتى ترتكز في أذهانهم منذ شبوبيتهم أصول السياسات الشرعية وفروعها و حتى يكونوا على علم بحقوقهم وواجباتهم ·

فالكتاب من حيث موضوعه و مادته معلم من معالم التجديد الفكري و التطور اللغوي وهو خليق أن يأخذ مكانه في الدراسة الجادة للقاموس العربي الحديث واتساع آفاقه ·

(٣) المرشد الأمين في تربية البنات والبنين

وهذا الكتاب يحمل في طيه أهمية كبرى لجدة موضوعه بالنسبة للمجتمع المصري والـعربي إذ ذاك فهو كتاب في الآداب والتربية العامة، أشار ديوان المدارس على المؤلف بـوضـعـه، ليـكـون أداة صـالـحة لتعليم البنات والبنين و تثقيفهم، وقد كان مما عني به الـمـؤلف ـ و ذلك شئ جـديد في الثقافة الإسلامية ـ أن يتحدث عن الوطن والخصائص التـي تـؤلف و طناً : من اتحاد اللسان والدخول تحت إسترعاء حاكم واحد والإنقياد إلى شـريـعة واحـدة وسياسة واحدة، ممايدل على أن الله تعالىٰ قد أعد أبناء الوطن الواحد

"للتعاون على إصلاح وطنهم، و أن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة، فكأن الوطن إنما هو منزل آبائهم وأمهاتهم و محل مرباهم، فليكن أيضاً محلا للسعادة المشتركة بينهم"(٦) .

و أطال الحديث عن الوطن و التمدن والحريات العامة يجلب معه تصورات حديثة على التفكير العربي ويستلزم إصطناع قاموس من الألفاظ تؤدي به تلك التصورات: كالوطني والأهلي والبلدي والحرية والجمعية التأنسية والحقوق المدنية والمزايا البلدية والملة والجنس والأهالى والرعية والتمدن والحقوق والأحكام المدنية وما إليها .

و يفصل رفاعة الطهطاوي الكلام في الحرية فيقسمها إلى خمسة أقسام: طبعية وسلوكية و دينية و مدنية و سياسية، و يتحدث عن كل قسم و يكشف عن ميوله و إتجاهاته في هذا الحديث : فالحرية الطبعية ، كما يقول : "هي التي خلقت مع الإنسان وانطبع عليها، فلا طاقة لقوته البشرية على دفعها بدون أن يعد دافعها ظالماً كالأكل والشرب ومن محاسن حرية الأمة أن تفرح أيضاً بحرية غيرها من الأمم وتتأذى من استعباد أمم الممالك الذين لاحرية عندهم"(٧) ، وأصل التمدن الحقيقي في نظره رسالة الرسل بالشرائع .

والكتاب من جهة التمدن في القاموس اللغوي ـ و على الأخص في ميادين التربية والنفس، يستأهل الدراسة اللغوية التاريخية التي يتحدث في حيوات الألفاظ و ما مرت به من مراحل التطور في الإستعمال، فإن في الكتاب مئات من الألفاظ التي أخذت مكانها الآن في الدراسات العربية الحديثة في التربية والنفس والسياسة والإجتماع والأخلاق .

(٤) قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر

وهو مترجم عن كتاب فرنسي بعنوان "Moeurs et usages des nations" وهو مجلد متوسط الحجم ترجمه وهو في باريس و تصرف في تعريبه بما رآه ووضع فيه نبذة لإيضاح ما فيه من أسماء البلدان و الرجال و تحدث عنه بفصيح لسانه وواضح بيانه ، و يشتمل الكتاب على قسمين كبيرين يحتوي القسم الأول أحد عشر فصلا والثاني خمسةعشر فصلاً .

و قد بدأ القسم الأول بوصف طريقة لأنواع المسكن عند مختلف الشعوب، ثم أنواع المأكل وانتقل بعد ذلك لشرح عادات الشعوب في الملبس والزي وأنواع الزينة، فذكر مثلاً أن في مصر وغيرها من بلاد الشرق تخضب النساء الأظافروالأكف بالحناء ونساء الصين يجعلن من جمالهن تطويل الأظافر، و تعرض هذا القسم بعد ذلك لعوائد الناس في الزواج وحفلاته ثم عرج على موقف الأمم المختلفة من المرأة وانتهز رفاعة الطهطاوي الفرصة وذكر رأيه في هذا الموضوع بصراحة فقال: "كلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم و ظرافتهم، فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغي لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة البربرية"(٨).

أما القسم الثاني من الكتاب فقد إهتم على الخصوص بالنواحي الفنية والأدبية عند الشعوب المختلفة كالشعر والموسيقى والتمثيل وعادات الأمم في الإحتفال بأعيادها و مراسمها، ثم وصف السمات الخلقية للشعوب وعوائدها ثم ذكر العقائد الفاسدة والبدع والأوهام المنتشرة فيكثير من الأمم، وبهذا الصدد حاول رفاعة الطهطاوي أن يلفت أنظار مواطنيه إلى حقيقة إجتماعية هامة وهي أن الخرافات أكثر انتشارا في القرى منها في المدن و ذلك لتفشى الجهل في القرية وذكر أن أثر هذه البدع يضعف بانتشار نور العلم والعرفان بدليل أن الإيمان بالسحر والشعوذة قد بطل عند الغربيين و صاروا لايعتقدون شيئا خارقا للعادة أصلاً.

(٥) مواقع الأفلاك في وقائع تليماك

وهذا الكتاب يمثل أول محاولة جريئة في تقديم الأدب الأسطوري اليوناني باللغة العربية، وقد حرص رفاعة الطهطاوي في هذه الترجمة على مراعاة الأصل مع مسايرة اللغة العربية و قواعدها و عقائدها المرعية و عبر عن رجائه في أن يعم النفع بهذا الكتاب في دوائر التعليم والتعلم في سائر البلاد الشرقية لاسيما في الديار المصرية.

(٦) بداية القدماء وهداية الحكماء

وهو كتاب يتضمن تاريخ بني إسرائيل و السوريين والعجم والهنود واليونان و قبائل العرب في شرح و بيان بأسلوب عذب و تبويب محكم، وضع خطبته و احتفل بأسلوبها المسجوع الرصين وأبان قيمه هذا العلم، وأن التاريخ مطمح خديو مصر الأعظم محمد علي باشا وأن له به و لعاً شديدا ولايسما تاريخ اليونان المشتمل على فحو رجال تلك الأزمان.

و يقول رفاعة عن هذا الكتاب (بداية القدماء) وهو أول ترجمة كتاب في تاريخ القدماء، جمع فأوعى وإليه في هذه المادة الراجعي وهو من الإتحافات الأفرنجية التي يصدق عليها قول الشاعر:

يحدث حاضرا عنهن باد و يتحف مغربي مشرقيا"(٩)

(٧) التحفة المكتبية في النحو

وهو كتاب لطيف يقع في مجلد جمع فيه القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة سهلة منظمة وحصر كل باب من هذا الكتاب في جدول حتى يسهل الإنتفاع به.

أما الكتب الأخرى التي قام رفاعة الطهطاوي بتأليفها و ترجمتها قد سبق ذكرها في الفصل الثالث لهذا الباب.

الفصل الخامس

تأثير آثار رفاعة رافع الطهطاوي على الفكر السياسي والإجتماعي في الأدب العربي الحديث

لقد ساد على المجتمعات العربية التأخر والجمود والتقليد طوال قرون بعد إزدهار الحضارة العربية في العصر الإسلامي الذهبي حتى بدأت النهضة الحديثة من جديد في العالم العربي في القرن التاسع عشر حين استيقظ الوعى القوي في مصر و شقيقاتها وتنبه لحظه من المعارف الحديثة والتطور الإجتماعي والتحرر السياسي واستجابت اللغة العربية لمطالب النهضة الشاملة، فأحيت ماضيها الذهبي وأضافت إلى ذخائرها الموروثة ما تفتقت عنه جهود مفكريها وعلمائها من ترجمة و تأليف واستكمل أدبها ما كان ينقصه من فنون عرفتها الآداب الأخرى، وأصبح لها مكان الصدارة في الذوق المعاصر، ويرجع فضل كل هذا إلى رفاعة الطهطاوي الذي كان الرائد الأول لتلك النهضة و واضع الحجر الأساسي في بنائها. وله دور بارز في الناحية الأدبية خاصة كما أدخل الفكر السياسي والاجتماعي في الأدب العربي الحديث بآثاره القيمة ومؤلفاته الرائحة، ولاسيما بكتابيه. "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" الذي صدر في عام ١٨٣٤م و"مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية" الذي صدر في عام ١٨٦٩م، وبعض ما نشر من فصول في الفكر السياسي والإجتماعي في مجلة "الوقائع المصرية" أيام أن كان رئيس تحريرها، كما يقول الدكتور لويس عوض: "أما أدب رفاعة الطهطاوي فهو بغير شك حجر الأساس في الفكر السياسي والإجتماعي الحديث. إن لم

يكن في العالم العربي كله ففي مصر على أقل تقدير، وهو لايكتسب هذه الصفة بفضل ما نقل رفاعة الطهطاوي إلى العربية من رسائل فلسفية ونصوص دستورية فحسب، ولكن بفضل تصديه لتحليل مقومات الحضارة الأوربية، وخاصة في وجهها السياسي والإجتماعي و تبينه لفلسفة سياسية واجتماعية ثورية، وتبشيره بهذه الفلسفة السياسية والإجتماعية سواء من خلال الكلمة المكتوبة أو من خلال تعاليمه في تلاميذه العديدين في مدرسة الألسن أو في غيرها من الأجهزة الثقافية التي أشرف عليها مما كان له أكبر الأثر في توجيه حركة الترجمة الأولى توجيها بذر بذور الثورة في فكرنا السياسي والإجتماعي وأفضى في النهاية إلى إنتصار التيار الفكري الذي شق رفاعة الطهطاوي مجراه في النصف الأول من القرن التاسع عشر"(١).

فإذا أردنا إجمال ما استحدثه رفاعة الطهطاوي في "تخليص الإبريز" في الفكر السياسي والإجتماعي في مصر الحديثة، قلنا إنه أول من عرف المصريين حقوق الإنسان وأول من عرفهم بالنظم والمذاهب السياسية الكبرى التي كانت سائدة في أوربا منذ الثورة الفرنسية وأول من دعا دعوة واضحة منظمة للفلسفة الليبرالية، و شرح أركانها نظريا وعمليا، فدافع عن المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وعن تكافؤ الفرص وعن كافة الحريات الديموقراطية التي ورثتها الإنسانية عن الثورة الفرنسية ودافع حرية التملك وحرية الرأي والتعبير وحرية العبادة وعن فصل الدين عن الدولة وعن فصل السلطات وعن استقلال القضاء وعن سيادة الأمة بوصفها مصدر السلطات وعن سيادة القانون وعن سيادة البرلمان بوصفه الوكيل عن الأمة على العرش ولم يكتف رفاعة الطهطاوي بتعريف المصريين بهذه المبادئ الأساسية بل رسم لهم الطريق إلى تحقيقها فشرح لهم أركان النظام الجمهوري والنظام النيابي بمجالسه المختلفة وتوزيع السلطة بين أجهزته الثلاثة: التنفيذية والتشريعية والقضائية وعلمهم بما قدمه من صورة ناصعة عن كفاح الشعب الفرنسي في ثورة ١٨٣٠م، أن أول ضمان لحقوق الإنسان وحرياته تتخلص في كلمة واحدة هي "الدستور" أو "الشرطة" بلغة أيامه.

وكذلك حاول رفاعة الطهطاوي أن ينقل إلى المجتمع المصري بعض المظاهر الطيبة مما رأى في أوربا و حاولت حكومات مصر في القرن التاسع عشر وهي تعمل على تنفيذ سياستها الإصلاحية أن تنقل إلى مصر بعض المظاهر الأخرى للحياة الإجتماعية في الغرب ٠ وتوافد على مصر في القرن نفسه عدد كبير من الأوربيين ممن استعانت بهم الحكومة لتنفيذ إصلاحاتها أو ممن أتوا يلتمسون أبواب الرزق وهؤلاء نقلوا معهم مظاهر الحياة الإجتماعية في الغرب، وكان وجودهم دافعاً للمصريين إلى محاكاتهم(٢) ٠

ومن خلال كتابه، يعطي رفاعة الطهطاوي للمصريين درسا في النظم والمذاهب السياسية من ناحية وفي تاريخ الثورات الكبرى و أسبابها من ناحية أخرى، وهو يقسم نظم الحكم المعروفة في أيامه إلى ثلاثة أقسام: الملكية المطلقة والملكية المقيدة والجمهورية ٠ وهو ضمناً يحبذ النظام الجمهوري عند ما يقول أن أتباعه هم الفلاسفة والحكماء وأغلب الرعية كما أنه يزكيه ضمناً حين يقول إن الشريعة الإسلامية التي ارتضاها الناس في زمنه أساسا لنظم الحكم تتسع للنظم الثلاثة، وبالتالي فالدعوة إلى الملكية المقيدة أو للنظام الجمهوري ليست كفراً ولا خروجا على أحكام الشريعة، وهكذا أوجد رفاعة الطهطاوي سنداً في الشريعة الإسلامية لنظام الملكية المقيدة وسنداً فيها للنظام الجمهوري وهذا كان قفزة ضخمة في الفكر السياسي والإجتماعي المصري فتحت باب الإجتهاد لكل من تلاه من المفكرين والمصلحين(٣) ٠

ونجد أثرا بالغا في الفكر السياسي والإجتماعي المصري للدستور الفرنسي الذي قام رفاعته الطهطاوي بترجمته، وقام بتحليله أيضاً والدستور الفرنسي يشتمل على إثنتي عشرة مادة:

المادة الأولى : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة ٠

المادة الثانية : يعطون من أموالهم بغير امتياز شيئاً معينا لبيت المال، كل إنسان على حسب ثروته ٠

المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لأخذ أي منصب كان وأي رتبة كانت .

المادة الرابعة : ذات كل واحد منهم مستقل بها ويضمن له حريتها ، فلايتعرض له إنسان إلا ببعض حقوق مذكورة في الشريعة، وبالصورة المعينة التي يطلبه بها الحاكم .

المادة الخامسة : كل إنسان موجود في بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يحب لايشاركه أحد في ذلك، بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرض له في عبادته .

المادة السادسة : يشترط أن تكون الدولة على الملة القاثوليقية الحوارية الرومانية .

المادة السابعة : تعمير كنائس القاثوليقية وغيرهم من النصرانية يدفع له شئ من بيت مال النصرانية، ولايخرج منه شئ لتعمير معابد غير هذا الدين .

المادة الثامنة : لا يمنع إنسان في فرنسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ويطبعه بشرط أن لايضر ما في القانون فإذا ضر أزيل .

المادة التاسعة : سائر الأملاك والأراضي حرم، فلايتعدى أحد على ملك آخر .

المادة العاشرة : للدولة دون غيرها أن تكره إنسانا على شراء عقاره لسبب عام النفع، بشرط أن تدفع ثمن المثل قبل الإستيلاء .

المادة الحادية عشرة : جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآراء والفتن يجب نسيانه وكذلك ما وقع من المحكمة وأهل البلد .

المادة الثانية عشرة : أخذ العساكر يرتب وينقص عما كان عليه وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر في البر والبحر(٤) .

وعلاوة على ذلك، قام بترجمة الدساتير الفرنسية المتعلقة بكيفية تدبير المملكة الفرنساوية و ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية والوزراء وطائفة القضاة وحقوق الناس التي يضمنها الديوان ٠

فكان رفاعة الطهطاوي بغير جدال أكبر قوة ثقافية في مصر طوال القرن التاسع، وربما تتجاوز تأثيره مصر إلى غيرها من البلاد العربية كما أن بعض كتبه كانت تطبع في بيروت وهو يذكر في كتابه "مناهج الألباب" بالتحديد أنه أثناء نفيه في السودان أو إقصائه إليها عن البيئة الثقافية المصرية، ترجم "وقائع تليماك" لفنيلون وأن هذا الكتاب نشر في بيروت ٠ أما تأثيره رفاعة الطهطاوي في المثقفين المصريين خلال القرن التاسع عشر، فقد كان مزدوجا من خلال إشرافه الشخصي كمدير لمدرسة الألسن أو كرئيس تحرير الوقائع المصرية أو كرئيس تحرير "روضة المدارس" على تكوين جيل من النثقفين: المعلمين أو المترجمين أو الكتاب أو الإداريين الذين صاغ أكثرهم على طريقته و وجههم وفقاً لخطة ثقافية واضحة لنقل أهم المراجع العلمية والأدبية وأحدثها ومن خلال كتبه الكثيرة التي كان يتداولها المثقفون ويتأثرون بما جاء فيها من مبادئ وتعاليم ٠ ومن الحقيقة أن كتاب "تخليص الإبريز" كان بمثابة حجر الأساس في الفكر السياسي والإجتماعي المصري خلال القرن التاسع عشر، وكتاب "مناهج الألباب المصريا" من مباهج الآداب العصرية هو بمثابة البناء العلوي الذين قامت عليه هذه الحركة الفكرية ٠

يمكن أن نقول إن "مناهج الألباب" هو أول كتاب ظهر في البلاد في الفكر السياسي والإقتصادي المصري نظريا وتطبيقيا، فهو كتاب في الإقتصاد السياسي أو في الإقتصاد والسياسة، ويشمل كذلك على فصول تاريخية دعت الضرورة إلى إدماجها لتوضيح الفلسفة الإجتماعية التي كان رفاعة الطهطاوي يعتنقها و يدعو إليها، وإذا كان "تخليص الإبريز" في أساسه كتابا عن الحضارة الفرنسية بقلم مفكر كان يعتقد أن بعث مصر لا طريق إليه إلا الأخذ بأهم مقومات الحضارة الثورية الأوربية في زمنه فإن "مناهج الألباب" في أساسه محاولة مصرية لبناء المجتمع المصري على أسس الديموقراطية ٠

أما الأفكار السياسية التي بشربها رفاعة الطهطاوي في مناهج الألباب فيمكن تلخيصها فيما يلي:

أولا : تثبيت فكرة القومية المصرية.

ثانيا : تثبيت فكرة الدولة الزمنية.

ثالثا : تثبيت مقومات المجتمع التقدمي سياسيا وإقتصاديا.

وأما في تخليص الإبريز، اهتم رفاعة الطهطاوي بإبراز معنين هامين: أمجاد مصر القديمة وحضارتها الشاهقة في العلوم والفنون والآداب منوها بآثار الفراعنة ودلالتها التاريخية ثم التشابه القوي بين العرب الأوائل والفرنسيين في أهم الفضائل الإجتماعية والفردية كالعدالة وحب الحرية والشجاعة في الحق حتى في احترام حرية المرأة وحقوقها ولعل من أخطر الفقرات في "تخليص الإبريز" قول الطهطاوي في نهاية رحلته ملخصا موقفه من الحضارات المختلفة:

"هذا ما كان لخصته، حسب الإمكان، فلم يبق علينا حينئذ إلا ذكر خلاصة هذه الرحلة، وما دققت فيه النظر وأمعنت فيه الفكر، فأقول: ظهر لي بعد التأمل في آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس، وأقوى مظنة القرب بأمور كالعرض والحرية والافتخار و يسمون العرض شرفا و يقسمون به عند المهمات وإذا عاهدوا عليه و وفوا بعهودهم، ولاشك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الإنسان"(٥).

وقد بدأ رفاعة الطهطاوي بالمناداة بأن البوليتيقية أى فن السياسة وأصول الحكم لاينبغي أن تبقى حكراً للطبقة الحاكمة بل ينبغي أن يتعلمها الشعب، وأن يشارك في وضعها لخير الدولة كلها، بل هو طالب بتعليم على السياسة في المدارس. كما يقول: "ومن البديهي أن للإنسان حقوقا وعليه واجبات فطلبه لحقوقه وتأديته لواجباته على الوجه الأكمل يقتضيان معرفة الحقوق والوجبات ومعرفتهما متوقعة على فهمهما وفهمهما

عبارة عن معرفة قوانين الحكومة التي هي السياسة فالذي لايريد خدامة الحكومة هو أيضاً مثل المستخدم فيها لمعرفة قوانينها، وهذه هي النظرية الديموقراطية في أن الشعوب لاينبغي أن تعزل عن السياسة بل ينبغي أن تتعلمها وتشارك فيها بالرأي وبالفعل وقد كان هذا المبدأ من المبادئ التي نسفت بها الثورة الفرنسية حكم الإستقراطية في أوربا(٦).

وكذلك أدخل رفاعة الطهطاوي نظرية جديدة على الفكر السياسي والإجتماعي المصري في القرن التاسع عشر وهي نظرية "الإخوة في الوطن" وقد كانت هذه الفكرة جزءا لايتجزأ من فكرة القومية المصرية ومن فكرة القومية العربية التي حلت محل فكرة القومية الإسلامية، تلك الفكرة التي كانت الإمبراطورية التركية والمماليك يستغلونها لإجهاض كل انتفاضة استقلالية في العالم العربي.

وفي نهاية المطاف يمكن لنا أن نقول إن رفاعة الطهطاوي كان مفكرا و مصلحا اجتماعيا ونصل إلى نتيجتين هامتين عنه: النتيجة الأولى أنه رغم عزلته النسبية في مصر والسودان بعد عودته من أوربا لم يتجمد عند أفكاره الأولى التي تبلورت في نفسه أيام إقامته بباريس بين ١٨٢٦م و ١٨٣٠م، وكانت كلها مستقاة إما من حركة التنوير أو من أفكار الثورة الفرنسية بل ظل يتابع أولا بأول معارك الفكر السياسي والإجتماعي والإقتصادي في أوربا من خلال إطلاعه على كتابات معاصر يه ولاسيما فلاسفة الإقتصاد منهم، والنتيجة الثانية هي أن رفاعة الطهطاوي قد أصابه تحول خطير في متعقداته السياسية والإجتماعية والإقتصادية، فتطور من الليبرالية إلى الراديكالية.

المصادر والمراجع

الفصل الأول

رفاعة و إصلاحات في مجال التعليم

(١) رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث — محمد عمارة — صـ ٢٧٥

(٢) نفس المصدر — صـ ٣٧٦

(٣) نفس المصدر — صـ ٣٨٤

(٤) نفس المصدر — صـ ٣٨٨

(٥) نفس المصدر — صـ ٣٩١

الفصل الثاني

رفاعة وقضية المرأة

(١) رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث — محمد عمارة — صـ ٣٣٣

(٢) رفاعة رافع الطهطاوي — جمال الدين الشيال — صـ ٥١

(٣) رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث — محمد عمارة — صـ ٣٤٦

(٤) نفس المصدر — صـ ٣٤٦

(٥) نفس المصدر — صـ ٣٤٤٠

(٦) عصر محمد علي — عبد الرحمٰن الرافعي — صـ ٥٢٢

(٧) رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث — محمد عمارة — صـ ٣٥٠

(٨) نفس المصدر — صـ ٣٥٢–٣٥٣

(٩) نفس المصدر — صـ ٣٥٣–٣٥٤

(١٠) حركة تحرير المرأة — عبد الواحد اسماعيل — صـ ١١–١٣

(١١) رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث — محمد عمارة — صـ ٣٦٠

(١٢) سورة النساء ، الآية ٣

(١٣) رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث — محمد عمارة — صـ ٣٦٧

(١٤) نفس المصدر — صـ ٣٦٢

الفصل الثالث

رفاعة المعرب والمترجم

(١) معالم التطور الحديث — محمد خلف الله أحمد — صـ ٦

(٢) الفنون الأدبية وأعلامها — أنيس المقدسي — صـ ١١٧

(٣) أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث — محمد يوسف كوكن — صـ ٤١

(٤) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي — جمال الدين الشيال — صـ ٢٠٥–٢١٥

(٥) الفنون الأدبية وأعلامها — أنيس المقدسي — صـ ١٣٢–١٣٣

(٦) حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر — جاك تاجر — صـ ١٥٧

(٧) نفس المصدر — صـ ١٥٨

(٨) أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث — محمد يوسف كوكن — صـ ٥١

الفصل الرابع

آثار رفاعة رافع الطهطاوي والتعريف ببعض كتبه

(١)	حلية الزمن بمناقب خادم الوطن	صالح مجدي	صـ ٢٤
(٢)	رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث	محمد عمارة	صـ ١١٤
(٣)	الأزهر و أثره في النهضة الأدبية الحديثة	محمد كامل الفقي	صـ ٦٤
(٤)	لمحة تاريخية عن حياة ومؤلفات الشيخ بدوي رفاعة الطهطاوي	فتحي رفاعة	صـ ٩٠
(٥)	حلية الزمن بمناقب خادم الوطن	صالح مجدي	صـ ٦١
(٦)	معالم التطور الحديث في اللغة العربية و آدابها	محمد خلف الله أحمد	صـ ٤٢
(٧)	نفس المصدر		صـ ٤٣
(٨)	لمحة تاريخية عن حياة و مؤلفات الشيخ رفاعة الطهطاوي	فتحي رفاعة	صـ ٩٢
(٩)	الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة	محمد كامل الفقي	صـ ٦٦

الفصل الخامس

تـأثيـر آثار رفاعة الطهطاوي على الفكر السياسي والإجتماعي في الأدب العربي الحديث

(١) المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث — لويس عوض — صـ ١٢٣

(٢) رفاعة رافع الطهطاوي — جمال الدين الشيال — صـ ١٩—٢٠

(٣) المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث — لويس عوض — صـ ١٣٥

(٤) تخليص الإبريز في تلخيص باريز — رفاعة رافع الطهطاوي — صـ ١٤١—١٤٢

(٥) نفس المصدر — صـ ٣٠٣—٣٠٤

(٦) مناهج الألباب نقلا عن (١) — صـ ٣٥٢—(١٥٩)

الباب الرابع

منتخابات من آثار رفاعة

رافع الطهطاوي

الفصل الأول

رفاعة الناثر

١ـ وطنياته

كان رفاعة الطهطاوي رائد النهضة العلمية والأدبية الحديثة، و مثالاً حيّاً للطالب النابغة الذي لم يدخر وسعاً في تحصيل العلوم والفنون والآداب، فأصبح في قمة النابهين وكان نموذجاً كاملاً للمواطن الصالح الذي عمل جاهداً لنفع بلاده ونقل المعرفة ووسائل النهضة والحضارة إليها عن طريق التأليف والترجمة وإنشاء مدرسة الألسن بمصر ٠

لقد أشربت نفس رفاعة الطهطاوي الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق (و حب الوطن من الإيمان) و من فطرته السليمة و حبه للخير، و قد استثار رحيله عن الديار تلك العاطفة الشريفة، فحركت الغربة في نفسه الحنين إلى الوطن و جادت قريحته بنثر و شعر يدلان على وطنية عميقة، ولاغرو فالعواطف الإنسانية تنشأ في قرارة النفس، ثم تبدو و تظهر كلما استثارتها الحوادث والمناسبات ٠ وكان لإقامة رفاعة بك في باريس أثر كبير في تكوين وطنيته، فقد رأى في تلك الديار مظاهر إخلاص الفرنسيين لوطنهم، و شهد ثورة الشعب سنة ١٨٣٠م، ورأى مفاداة الناس للوطن و بذلهم أرواحهم و دماء هم في سبيله، فأثرت هذه المشاهد الرائعة في نفسه الحساسة و صادفت منها موضع الإعجاب والإقناع، و غرست في قلبه الفضائل والمبادئ الوطنية التي كان يميل إليها بفطرته الطيبة ٠

يقول الدكتور جمال الدين الشيال عن وطنية رفاعة الطهطاوي : "كان رفاعة الرائد الأول في هذا الميدان، فهو أول من كتب ـ نثراً و شعراً ـ في معنى الوطن والوطنية وحب الوطن في العصر الحديث، و أفكاره التي تدور حول هذه الموضوعات، والتي تنادي بالاعتداد بوطنه مصر والإشادة بأمجاده تجدها منتشرة في فصول كتبه المؤلفة والمترجمة، و في مقالاته الصحفية في "الوقائع الرسمية" و "روضة المدارس" و في مقطوعاته الشعرية المختلفة"(١).

(١) حب الوطن (مصر)

يقول رفاعة رافع الطهطاوي في حب الوطن (مصر)

"إرادة التمدن للوطن لا تنشأ إلا عن حبه من أهل الفطن، كما رغّب فيه الشارع، ففي الحديث: "حب الوطن من الإيمان"؛ وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ : "عمّر الله البلاد بحب الأوطان"؛ و قال علي كرّم الله وجهه ـ " سعادة المرو أن يكون رزقُه في بلده"؛ و قال بعضُ الحكماء : "لو لاحب الوطن لما عُمّرت البلاد غير المخصبة"؛ وقال الأصمعي : "دخلت البادية، فنزلت على بعض الأعراب، فقلت له: أفدَني، فقال: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، ومكارم أخلاقه، و طهارة مولده، فانظر إلى حنينه لأوطانه، و شوقه إلى إخوانه" ، قال الشاعر:

و حبَّب أوطان الرجال إليهمُ ... مآرب قضّاها الشاب هنالكا
إذا ذكرت أوطانهم ذكرت لهم ... عهودُ الصّبا فيها، فحنّوا لذلك
ولي موطن آليت أنيّ أعزه ... وأن لا أرى غيرى له الدّهر مالكا

فالوطن محبوب، والمنشأ مألوف، حتى لغير المتمدن، و يكفى حب الوطن أن كراهة الإجلاء منه مقرونةٌ بكراهة قتل الإنسان نفسه في قوله تعالى: "ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه"(٢).

وحسب المؤمن بحب الوطن أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، حين خرج من مكة علا مطيته، واستقبل الكعبة، و قال: "والله، لأعلم أنك أحب بلد الله إلى، وأنك أحب أرض الله إلى الله تعالى عز و جل - و أنك خير بقعة على وجه الأرض و أحبها إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لما خرجت".

وبالجملة فحب الأوطان - على عظم الحسب وكرم الأدب - أبهى عنوان، وهو فضيلة جليلة، لايؤدى حق الوفاء بها إلا من حاز الشمائل النبيلة، ولاتعين عليها إلا الهمم العلية والعزائم الملوكية، التي تقلد أعناق الأمة حلى المنة والنعمة، فتبعثهم على التشبث بالأوطان، والتعلق بأذيال الإخوان، لاسيما إذا كان الموطن منبت العز والسعادة والفخار والمجد كديار مصر، فهى أعز الأوطان لبنيها، و مستحقة لبرّها منهم بالسعى لبلوغ أمانيها، بتحسين الأخلاق والآداب، من جهتين عظيمتين:

الأولى: أنها أم لساكنيها، و بر الوالدين واجب - عقلاً و شرعاً - على كل إنسان.

والثانية: أنها ودود بارّة بهم، مثمرةٌ للخيرات، منتجة للمبرّات، فبرها يعود على أبنائها ثمرته، و ترجع إليهم فائدته، و يحسن الصنيع بتضاعف الفوائد أضعافا مضاعفة، وكلما تحسنت جهات البرّ من أهاليها حسنت أيضاً الثمرات لطالبيها، فإذا كانت لا تحرم من ثمرات مصر الأجانب، فبالأحرى أن تتمتع بها الأقارب، ففى الأثر "من أعيته المكاسب فعليه بمصر، وعليه بالجانب الغربي منها"(٣).

(٢) حب الوطن الخصوصي (طهطا)

و يقول رفاعة رافع الطهطاوي في حب الوطن الخصوصي (طهطا)

"إن حب الوطن من الإيمان، ومن طبع الأحرار إحراز الحنين إلى الأوطان، و مولد الإنسان على الدوام محبوب، و منشؤه مألوف له و مرغوب، ولأرضك حرمة وطنها، كما لوالدتك حق لبنها، والكريم لايجفو أرضا بها قوابله، ولا ينسى داراً فيها قبائله، فإنى وإن ألبستنى المحروسة (القاهرة) نعما، ورفعت لى بين أمثالى علماً، و كانت أم الوطن

العام، وولية الآلاء والإنعام، وأحبها حبا جماً، لأنها ولية النعما، وقضيت فيها الأربعين مجاوراً "كرام السجايا والبحور الطواميا"، فلا زلت أتشوق إلى وطنى الخصوصي وأتشوف، وأتطلع إلى أخباره السارة واتعرف ولا أساوي بطهطا الخصبة سواها، في القيام بالحقوق وإكرام مثواها:

منازل، لست أهوى غيرها، سقيت حيا يعم، و خصت بالتحيات"(٤).

(ب) آراؤه في التربية والإجتماع

(١) تربية البنين والبنات

نادى رفاعة رافع الطهطاوي في تربية البنين والبنات مما ينادي به اليوم علماء التربية المحدثون، فهو يقول بضرورة تعليم الأولاد جميعا في مرحلة الطفولة الأولى الأشياء الضرورية الإجبارية، وهى: القراءة والكتابة، والحساب، و مبادئ الأخلاق الفاضلة، والدين، والرياضة البدنية، والتربية العسكرية، ثم تراعى بعد هذا الإستعدادات والميول الفطرية، فيوجه كل طالب إلى الدراسة التي تؤهله لها هذه الاستعدادات والميول، وهو أخيراً ينادي - ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث - بضرورة تعليم البنت، وإشتراكها مع الولد - على الأقل في تعليم الأشياء الضرورية من قراءة و كتابة و دين و حساب.

يقول رفاعة رافع الطهطاوي في تربية البنين والبنات

"إن توصيل الولد إلى الرتبة المطلوبة والدرجة المرغوبة، تتوقف على حسن التربية والتهذيب، والتعليم والتأديب، ولا يخفى أن الله سبحانه وتعالى شرّف الإنسان بمضغتين صغيرتين، وهما: قلبه و لسانه، وخصّه بصفتين عظيمتين، وهما: همته وإحسانه: وما عدا ذلك من محض المال أو الجمال فإنما هو حظ، الأدنياء من النساء والرجال، فلا يرتفع المرء حتى يرفعه أكبراه وأصغراه، فالجنان قابل واللسان قائل،والهمة حاملة، والإحسان فضيلة عاملة، والجنان عارف مستقر واللسان معترف مقر: والهمة حركة

منتشرة، والإحسان بركة مبشرة؛ فإن الجنان ينشى، واللسان يفشى، كلاهما يساعد الهمة والإحسان، والعزم الإتقان ولذلك كان المرء بأصغريه، و معلوم أن الولد الصغير مستعد بأصغريه إلى استكمال أكبريه، فيحتاج إلى التربية التي هى صنعة المربى الذي يقيمه الولى لتأديب الصبى فيما يُقصد منه ٠

فيجب على الولّى أن يتأمل في حال الصبى وما هو مستعد له من الأعمال متهئ له منها ٠ فيعلم أنه مخلوق له؛ فالحديث يقول: "اعملوا فكل مُيسر لما خلق له"، فلا يحمله على غيره، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه عادة، فيفوته ما هو متهيئ له ٠

فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعياً، فهذا من علامة قبوله للعلوم والفنون و تهيؤه لهما، فلينقشها في لوح قلبه ما دام خاليا، فإنها تتمكن من القلب، و تستقر فيه، وتزكو معه؛ وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه علم أنه لم يخلق لذلك ٠

فإن رأى عينه طامحة إلى صنعة من الصنائع، مستعدا لها، قابلاً عليها، وهى صناعة مباحة نافعة لأهل وطنه، فليمكنه منها ٠

وهذا كله بعد تعليمه المعارف الإبتدائية التي يشترك فيها كل فرد من أفراد الجمعية التأنسية، وهى : الكتابة والقراءة،وما يحتاج إليه في دينه من العقائد وغيرها، وأصول الحساب، و نحو ذلك من السباحة والعوم، والفروسية وأسبابها: من ركوب الخيل، والرمى، واللعب بالرمح والسيف، وأشباه ذلك من آلات الحرب، ليتمرن على وسائل الدفع عن وطنه، والمحاماة عنه، فإن هذه الأشياء من المنافع العمومية التى ينبغى تمرين الأطفال في زمن الشبوبية عليها ٠

هذا بالنسبة للذكور، وأما بالنسبة للبنات، فإن ولىّ البنت يعلّمها ما يليق بها من القراءة، وأمور الدين، كل ما يليق بالنساء من خياطة و تطريز، وإن اقتضى حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادئ المعارف النافعة في إدارة المنازل فلا بأس بتعليم الحساب وما أشبه لهن، ويشترك الصبيان والبنات في تعليم الأخلاق والآداب وحسن السلوك"(٥) ٠

(٢) تعليم المرأة

إن رفاعة رافع الطهطاوي هو أول من دعا إلى نهضة المرأة وإلى تعليم البنات و تثقيفهن أسوة بالبنين، و ألّف كتاباً مشتركاً لتثقيف البنات والبنين على السواء و سماه "المرشد الأمين للبنات والبنين" وهو كتاب في الأخلاق والتربية والآداب والفه ليصلح لتعليم البنين والبنات على السوية، ودعا في هذا الكتاب إلى وجوب تعليم البنات واعدادهن من طريق التربية والتعليم للعمل والقيام بواجبهن في المجتمع، قال في هذا الصدد:

"ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً، لحسن معاشرة الأزواج، فتتعلم البنات القراء ة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فإن هذا مما يزيدهن أدباً و عقلاً، و يجعلهن بالمعارف أهلاً، ويعظم مقامهن، لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش، مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها، وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال، على قدر قوتها و طاقتها، فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل، فالعمل يصون المرأة عما لايليق، و يقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهى مذمة عظيمة في حق النساء"(٦).

ج ـ وصفه لبعض مظاهرا المجتمع الفرنسي

كانت الحياة في أوائل القرن التاسع عشر مختلفة جدا الإختلاف عن الحياة في أوربا، قد لفت هذا الإختلاف أنظار رفاعة رافع الطهطاوي الفتى الأزهري عند وصوله إلى فرنسا و في أثناء مقامه بباريس، فقدم رفاعة في رحلته صوراً طريفة من المجتمع الباريسى كما رآه، و نحن ننقل هنا بعض هذه الصور الوصفية.

(١) نظام الأكل عند الفرنسيين

"وعادة الفرنساوية الأكل في طباق كالطباق العجمية أو الصينية، لا في آنية النحاس أبداً، ويضعون على السفرة دائماً قدام كل إنسان شوكة و سكينا و ملعقة، والشوكة والملعقة من الفضة.

ويرون أن من النظافة والشلبنة أن لايمس الإنسان الشئ بيده، و كل إنسان له طبق قدامه بل كل طعام له طبق، و قدام الإنسان قدح يصب فيها ما يشربه من قزازة عظيمة موضوعة على السفرة، ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح الآخر، فأوانى الشرب دائما من البللور والزجاج، وعلى السفرة عدة أوان صغيرة من الزجاج، أحدها فيه ملح، والآخر فيه فلفل، وفي الثالث خردل، إلى آخره؛ وبالجملة فآداب سفرتهم و ترتيبها عظهيم جداً.

وابتداء المائدة عندهم الشوربة، واختتامها الحلويات والفواكه، والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء، ويكثر في باريس شرب الشاى عقب الطعام، لأنهم يقولون إنه هاضم للطعام، ومنهم من يشرب القهوة مع السكر، وفي عوائد أغلب الناس أن يفتتوا الخبز في القهوة المخلوطة باللبن ويتعاطوها في الصباح.

و قد اتفق لى ذات يوم و أنا مار في طريق باريس أن سكرانا صاح قائلاً: "يا تركي، يا تركي"، و قبض ثيابي، و كنت قريبا من دكان يباع فيه السكر و نحوه، فدخلت معه وأجلسته على كرسى، و قلت لرب الحانوت على سبيل المزاح:

- "هل تريد أن تعطيني بثمن هذا الرجل سكرا أو نُقلاً؟"

فقال صاحب الحانوت

- "ليس هنا مثل بلادكم يجوز التصرف في النوع الإنساني" فما كان جوابى له إلا أنني قلت:

- "إن هـذا الشـخص السكران ليس في هذا الحال من قبيل الآدميين" وهذا كـلـه والـرجل جالس على الكرسى ولا يشعر بشئ من ذلك؛ ثم تركته بهذا المحل وذهبت"(٧).

(٢) ملابس الفرنسيات

"وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة، خصوصا إذا تزين بـأغـلـى مـاعـليهـن، ولـكـن ليـس لهن كثير من الحلى، فإن حليهن هو الحلق المذهّب في آذانهـن، ونـوع مـن الأسـاور الـذهب يلبسنه في أيديهن خارج الأكمام، وعقد خفيف في أجيادهن؛ وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبداً.

ومـن عـوائـدهن أن يحتزفن بحزام رفيع فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفا، و يبـرز الردف كثيفا، ومن خصال النساء أن يشكبن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن إلى آخر الصدر حتى يكون قوامهن دائما متعدلا لا اعوجاج به .

ولهـن كثيـر من الحيل، ومن خصالهن التى لايمكن للإنسان أن لايستحسنها منهن عـدم إرخـائهن الشعور كعادة نساء العرب، فإن نساء الفرنسيس يجمعن الشعور في وسط رؤوسهن ويضعن فيه دائماً مِشطا و نحوه"(٨).

(٣) منتزهات باريس

"و مـن مـنتزهات باريس الحدائق العظيمة العامة، ففي باريس نحو أربعة بساتين كبـرى، يتـماشى فيها الخاص والعام، فمنها حديقة تسمى: "الشمبزليزه"، معناه بالعربية، "ريـاض الـجـنة"؛ وهـى مـن أرق الـمتـنزهات وأنضرها، وهى بستان عظيم يبلغ أربعين أربـانـا، والأربان هو قياس يقرب من الفدان.

ومـع أن طـول طريقها نحو ألف قامة، فإنها موضوعة بحيث إنك إذا مددت نظرك رأيت طرفها الثانى قدام عينيك، وفى هذه الروضة العظيمة دائما شئ من الملاهى لايمكن

حصره، و سائر أشجار هذا البستان متصافة متوازية بعضها مع بعض، رتبت بحيث إنه يوجد مدخل من كل الجهات، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات، وفي وسط كل من الأشجار يوجد محل مربع ٠

وهذه الحديقة يتصل أحد جوانبها بنهر السين، و بينها و بينه رصيف، و بجانبها الآخر بيوت بأطراف الخلا، وفيها كثير من القهاوى والرسطراطورات - يعني بيوت الأكل - و فيها سائر أنواع الطعام والشراب ٠

وهى مجمع الأحباب والأكابر، وبها كثير من المرامح للخيل، ويدخل فيها الأكابر بالعربيات المزينة، وفيهاعدة آلاف من الكراسى بالأجرة، يجلس عليها في زمن الربيع نهارا، وفي زمن الصيف ليلا، وأعظم اجتماع الناس فيها يوم الأحد، فإنه يوم البطالة عند الفرنساوية، وبالجملة فهذه الحديقة محل للمواسم وللأفراح العامة والزينات، وبها تتماشى سائر النساء الجمالات"(٩) ٠

الفصل الثاني

رفاعة الشاعر

١ـ وطنياته

كان صوت رفاعة الطهطاوي أول صوت ارتفع في تاريخنا الحديث للتحدث عن الوطن والوطنية، والإشادة بأمجاد مصر في عصورها القديمة والحديثة، ودعوة المصريين إلى الإعتداد بتاريخهم و بحضارتهم، و قد تناول هذه المعاني جميعا فيما كتب نثرا و شعرا ـ وإنك لتلمح ضوء الوطنية الساطع من قصيدة له بباريس قالها في الحنين إلى مصر و أهلها والإشادة بذكرها، قال فيها:

ناح الحمام على عضوان البان ... فأباح شيمة مغرم ولهان
ما خلته مذ صاح إلا أنه ... أضحى فقيد اليفه و معانى
وكأنه يلقى الىّ اشارة ... كيف اصطباري مذ نأى خلالى
مع أنني والله مذ لا فارقتهم ... ما طاب لى عيشي و ضفوزمانى
لكنني صَبٌّ أصون تَلَهُّفي ... حتى كأنى لست باللهفان
و بباطن الأحشاء نارٌ لو بدت ... جمراتها ما طاقها الثقلان
أبكى دَماً من مهجتى لفراقهم ... وأود ألَّا تشعر العينان
لى مذهب في عشقهم واريته ... ومذاهب العشاق في إعلان
ماذا علىَّ إذ كتمت صباتى ... حتى لوان الموت في الكتمان (١)

وامتدح محمد علي و إبراهيم بأشعار نهج فيها منهج الإشادة بالمفاخر القومية، قال:

و من كل مثل أميرنا فقرينه ... اسكندر أو كسر نو شروان

في وجهه النصر المبين على العدا لاحت بشائره لكل معانى
في كفه سيفان سيف عناية والشهمُ ابراهيمُ سيفٌ ثاني(٢)

وله قصائد و منظومات وطنية قالها في مناسبات مختلفة، فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تعبر عما يجيش في نفسه من أكرم العواطف وأنبلها، قال:

يا صاحب حب الوطن حلية كل فطن
محبة الأوطان من شعب الإيمان
في أفخر الأديان آية كل مؤمن

يا صاح حب الوطن حلية كلِّ فطن
مساقط الرؤس تلذ للنفوس
تذهب كل بوس عنا، وكل حزن

يا صاح حب الوطن حلية كل فطن
و مصر أبهى مولد لنا، وأزهى محتد
و مربع و معهد للروح أو للبدن

شدت بها العزائم ينطت بها التمائم
لطبعنا تلائم في السر أو في العلن

مصر لها أيادى عُليا على البلاد
وفخرها ينادي ما المجد إلا ديدني
الكون من مصر اقتبس نوراً، وما عنه احتبس

فـخـر قـديـم يـؤثـر عـن سادة و يـنشر
زهـور مـجـد تـنثـر مـنهـا العقول تجتنى

دار نـعيـم زاهيـه و معـدن الـرفاهيـه
آمرة و نـاهيه قـدمـا لـكـل الـمدن
قوة مصر القاهره على سواها الظاهره
و بـالـعمار زاهره خـصـت بـذكر حسن

أبـناء هـا رجـالُ لـم يثـنهم مجـال
ولا بهـم أو حـال فـي ليـل وقـع دجـن
جـنـدهـم صـنـديـد و قـلبـه حديد
و خسـمـه طـريـد بل مدرج في كفن"(٣)

و قال يصف الجيش المصري ويشيد مفاخره:

نـنـظـم جـندنا نظما عـجيبـا يـعـجز الفهما
بأسد ترعب الخصما فـمـن يـقـوى يناضلنا

رجـال مـا لهـا عـدد كـمـال نـظـامهـا العدد
حـلاهـا الدرع والـزرد سـنـان الـرمـح عاملنا

و هـل لـخيـولـنـا شبـه كـرائـم مـا بهـا شبـه
إليهـا الـكـل مـنتبـه وهـل تـخـفـى أصـائلنا

لـنـا فـي الجيش فرسان　　لهم عـنـد الـلقـا شـان
و فـي الهيـجاء عنوان　　تهيـم بـه صـواهلنا

مـدافـعـنـا القضـا فيهـا　　و حكم الحتف في فيها
وأهـونهـا و جـافيهـا　　تـجـود بـه مـعاملنا

لـنـا الـرؤسـاء أبطـال　　رجـال أيـنـمـا جالوا
بـصـولة عيـلـم صـالوا　　يـفـوق الـحـد صائلنا

لنا في المدن تحصين　　وتـنظيم و تحسين
وتـأييـد و تـمـكيـن　　منيعات معاقلنا"(٤)

وهـذه الأبيـات لـمن خير ما قيل في وصف الجيش المصري، ولاشك أن رفاعة قد استـلهـم شـعـره مـن مـفاخر الجيش في عهده، فهو يصور العصر الذي عاش فيه تصويرا صـحيـحـا، لا مبـالغة فيه ولا إغراق، وإن قصيدته لتشبه أن تكون لوحة فنية يخيل لمن يـنـظـر إليهـا أنـه يـلـمح فيها كتائب الجيش المصري تسير إلى ميادين الحرب، تحف بها أعـلام الـنـصـر والـظفر، تخوض غمار القتال، بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام، و تجابه الأخـطـار قـوية الإيـمـان، ثـابتة الـجـنان، مجهزة بالسلاح والمدافع، ولو لم يشهد رفاعة مـفـاخـر الـجيـش الـمـصـري في ذلك العصر، لما جادت قريحته بهذا الشعر، وهكذا يتأثر الشـاعـر والأديـب بـالعصر الذي يعيش فيه، والبيئة التي تحيط به، ويصور الحياة على عهـده، فـكـأنـمـا هـو قـطـعة مـن عـصـره، أو مـرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والإجتماعية، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية.

ب ـ شعره الوصفي

وصف الوابور

يقول الدكتور جمال الدين الشيال "قصائد رفاعة في الوصف قليلة العدد، وقد أحصيت منها اثنتين: الأولى وصف فيها أفراح الأنجال، والثانية وصف فيها الوابور، وقد أتينا هنا بالقصيدة الثانية كنموذج لهذا النوع من شعره.

" العقل في الوابور حار نبغي الجواب فلا يحير

فإذا أردت الاختبار علما به، فأسأل خبير

فلك بأوج اللج دار ومن الحضيض له مدير

يجرى على عجل كبار في رسم شكل مستدير

هو من عطارد لايغار فكأنه الفلك الأسير

قد أورث الشمس اصفرار لما علا منه الصفير

قمر منازله البخار نجم السماك له سمير

في كفه الجواز سوار بهر الثريا إذ تشير

والمشتري حاز اليسار فغدا بزهرته أسير

ملك له الوحى ائتمار أبدا بأجنحة يطير

و براق أسرى في القفار يطوي الفيافي إذ يسير

ملك على الأنهار سار وعلى البحار له سرير

بالعز أكسبها الصغار مع أنه جرم صغير

قد نال من كسرى اعتبار لبخار عنبره عبير

خاقان هند خوف عار ما هاله لهب السعير

بركان نار حيث ثار نورا، و صال له هدير

أو سائح يهوى السفار لمصالح الدنيا سفير

أو عاشق سلب القرار أو يحسد الطرف القرير

في الحب قد خلع العذار ودموع مقلته غدير

صب، وفي طلب الفرار للأمن من أمر خطير

أو باز صيد قد أغار مغرى على الظبى الغرير

أو ظبى قاع ذو نفار يعدو إذا عم النفير

البرق سرعته استعار والورق منه تستعير

و يرى الرياح بالاحتقار فهبوبها معه حقير

طرف تسايره الدرار ليلا، فتخجل في المسير

لليل يطوي و النهار وبه ازدهى الزمن الأخير

ما الفعل ينسب للبخار بل صنع خلاق قدير"(٥)

ج ـ أشعاره التربوية

لا يترك رفاعة الطهطاوي سبيلا من السبل فيما يتطلع إليه من تعليم الناس حتى يطرقه، فيلجأ أحيانا إلى الرجز ــ وكان فيه ميل الشعر: يقرضه و يستشهد به ــ كأرجوزته في تأديب الأطفال، يقول فيها : "وقد كنت نظمت في كتاب تعريب الأمثال

فـي تـأديب الأطفال منظومة لطيفة، تحسن بمنوال التعريب نسجها فيحسن هنا بمناسبة الـمـقـام أدراجهـا، وكان هذا لصدد حديثه في مناهج الألباب عن "تعليم الأطفال وأطوار الـصـغيـر" يتـحـدث فيهـا إلـى الأبـنـاء بـالـنـصح والوصية فيما يتحلون به من خلق وما ينسجون عليه من سلوك" يبدأها بقوله:

الـحـمـد لله و صـل ربـي عـلـى الـنبي و آله والصحب
و بـعـد فـالتـأديـب للأبنـاء أكـد واجـب عـلـى الآبـاء
مـن أجـل ذا نـظمت للتنبيه خـمسـا و أربعين بيتـا فيـه
في نـحو ساعتين والمولي على قـصـدى أعـان جل ربي و علا
فـي بـر والـديك بـالـغ تـغـنـم لاسيما في العيد أو في الموسم
و ان تـرم سـرور أم أو أب يـوما فكسب العلم خير مكسب

و منها:

ان رمت أن تشوّق الأولاد وأن تـرى مـن بـخلك اجتهـادا
فعده بالاتحاف يوم العيد وقـدم الـوعـد عـلـى الـوعيـد

و يستعرض فيها ما تسحب للطفل من حميد الصفات كالنظافة، والطاعة، وما يكره منه كالغضب والعناد أو يذم فيه كالتخفى و كتمان السرعن الآباء.

و مما تتحلى به البنات من العلم والاحتشام فضلا عن "الشغل والتطريز"، فيقول:

فضل البنات الشغل والتطريز و مـن حـوت عـلـمـا بـه تفوز
فـي سـائر الأحوال الإحتشام مـن جـنسهـن والـحيـا يـرام

و يختمها بما يستوى مع منهجه من أدب الإسلام والتربية الإسلامية، فيقول:

تستحسن الطباع وصف الأدب وأحسـن الآداب آداب الـنبـي

وما سوى أخلاقه فباطل　　و من تحلى بسواها عاطل
ولا يليق من غلام الطاعة　　خروج رأيه عن الجماعة
ففي اجتماع الكلمة السلامة　　بها يتم الفتى مرامه
الحمد لله و صلى الله　　على النبي و كل من والاه(٦)

د ـ شعره الغنائي

بعد تولى عباس الأول حكم مصر أمر بإغلاق معظم المدارس، وأبعد ناظرها رفاعة الطهطاوي إلى السودان، و لبث رفاعة في الخرطوم نحو أربع سنوات قاسى في خلالها المصائب، ولم ين لحظة عن السعى للعودة إلى مصر، و قد أورد في كتابه "مناهج الألباب" قصيدة أرسلها إلى حسن باشا كتخذا مصر يشكو فيها مما يقاسيه و يستعين به لمساعدة للعودة إلى الوطن، قال:

شكوى

"الا فادع الذي ترجو و ناد　　يجبك، وإن تكن في أي ناد
فمن غرس الرجا في قلب حر　　أصاب جنى النجاغب الحصاد
و من حسن الخلائق سله صنعا　　جميلا، فهو أوفى بالوداد
بنو الآداب إخوان جميعا　　وأخدان بمختلف البلاد
وآداب الفتى تعليه يوما　　إلى الأنجاد من بعد الوهاد
رحلت بصفقة المغبون عنها　　وفضلى فى سواها في المزاد
على عدد التواتر معرباتى　　تبى بفنون سلم أو جهاد
و ملطبرون يشهد وهو عدل　　و منتسكو يقر بلا تمادى
وتغترفو قراح فرات درسى　　قد اقترحوا سقاية كل صادى

ولاح لسان باريس كشمس بقاهرة المعز على عمادى
و محيى مصر أحيا كان قدرى وكافأنى على قدر اجتهادى
سأشكر فضله ما دمت حيا وما شكرى لدى تلك الأيادى
وما السودان قط مقام مثلى ول سلماى فيه ولا سعادي
و قد فارقت أطفالا صغارا بطهطا، دون عودى واعتيادى
و عادت بهجتى بالنأى عنهم بلوعة مهجة ذات اتقاد
وطالت مدة التغريب عنهم ولا غنم لدى سوى الكساد
و ما خلت العزيز ذلى ولا يصغى لأخصام لداد
لديه سعوا بألسنة حداد فكيف صغى لألسنة حداد
مهازيل الفضائل خادعوني وهل في حربهم يكبو جوادي
و زخرف قولهم إذ موهوه على تزييفه نادى المنادى
فهل من صيرفي المعنى بصير صحيح الإنتقاء والانتقاد؟
قياس مدارسى قالوا عقيم بمصر، فما النتيجة في بعادى؟
ثلاث سنين بالخرطوم مرت بدون مدارس طبق المراد
و غاية مطلبى عودى لأهلى ولو من دون راحلة وزاد
و كم بشرت أن عزيز مصر تفوه بالفكاك، ولم يفاد
و حاشا أن أقول مقال غيرى وذلك ضد سرى واعتقادى" (٧)

من التأمل فيها نقلناه من شعر رفاعة و نثره نستطيع أن نتبين مبلغ تقدم اللغة والأسلوب في إنشائه تقدما نسبيا عن العصر الذي سبقه، وهذا التقدم هو نتيجة النهضة الأدبية والعلمية التي ظهرت في عصر محمد علي باشا و أعقبت حركة الركود التي أصيبت بها العلوم والآداب في عصر المماليك، فأسلوب رفاعة الطهطاوي قد تحلل من قيود الركاكة القديمة، وامتاز بصحة العبارة والتأثر من الثقافة الأوروبية، وهو و إن

كـان قـد تـقيد في بعض المواطن بقيود السجع المتكلف والبديعات اللفظية إلا أنه خطا بـاللـغة والإنشـاء خطوة في طريق التقدم، وفي بعض شعره و نثره تلمح روح البلاغة و نسيم الترسل والسهل الممتنع ٠

فـرفـاعة رافـع الـطهـطـاوي هو أول من نهض بالشعر والأدب في العصر الحديث، ويـعدُّ شعره دور الإنتقال إلى دولة الأدب الجديد التي حمل لواء ها البارودي واسماعيل صبـري و شـوقـي وحـافظ ومطران و غيرهم من أعلام الأدب، نعم إننا إذا وضعنا شعره إلى جانب "شوقيات" أمير الشعراء "ووطنياته" لجاء في المرتبة الثالثة أو الرابعة من جهة الـروح والأسـلوب والبلاغة وإبتكار المعانى، ولكن يجب ألا ننسى أ ن رفاعة الطهطاوي نشأ في عصر كانت اللغة العربية وآدابها فى دور تأخرها و اضمحلالها، فله على النهضة الأدبية والـعـلـمية فـضـل لايـنـكر وأغلب الظن أنه لو تفرغ للأدب والشعر دون التعريب والتأليف العلمي لبلغ في دولة الأدب شأوا أعظم مما أدركه ٠

المصادر والمراجع

الفصل الأول

رفاعة الناثر

(١)	رفاعة رافع الطهطاوي	جمال الدين الشيال	صـ ٥٧
(٢)	الآية ٦٦(م) السورة ٤ (النساء)		
(٣)	رفاعة رافع الطهطاوي	جمال الدين الشيال	صـ ٥٧—٦٠
(٤)	الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة	محمد كامل الفقى	صـ ٧٢
(٥)	مناهج الألباب المصرية	رفاعة رافع الطهطاوي	صـ ٦٥—٦٦
	في مباهج الآداب العصرية		
	نقلا عن "رفاعة الطهطاوي"	حسين فوزى النجار	صـ ١٧٠—١٧٢
(٦)	المرشد الأمين للبنات والبنين	عبد الرحمٰن الرافعى	صـ ٦٦
	نقلا عن "عصر محمد على"		
(٧)	تخليص الابريز في تلخيص باريز	رفاعة رافع الطهطاوي	صـ ١٦٢—١٦٣
(٨)	نفس المصدر		صـ ١٦٣—١٦٤
(٩)	نفس المصدر		صـ ١٦٩ — ١٧٠

الفصل الثاني

رفاعة الشاعر

(١)	عصر محمد علي	عبد الرحمٰن الرافعي	صـ ٥٢٩
(٢)	نفس المصدر	نفس المصدر	صـ ٥٣٠
(٣)	شعراء الوطنية	عبد الرحمٰن الرافعي	صـ ٩—١٠
(٤)	نفس المصدر	نفس المصدر	صـ ١٠—١١
(٥)	رفاعة رافع الطهطاوي	جمال الدين الشيال	صـ ٨٤—٨٦
(٦)	رفاعة الطهطاوي	حسين فوزي ال	صـ ١٧٤—١٨٥
(٧)	رفاعة رافع الطهطاوي	جمال الدين الشيال	صـ ٨٩—٩٢

الخاتمة

إن مصر والبلاد العربية الأخرى كانت ترزح تحت الجهل المطبق والخمول و الفوضى والإضطراب و الإضطهاد السياسي و كانت الشعوب العربية تقاسي أوضاعا مؤلمة و ضنكا و بؤسا ، هذه هي حال مصر عندما غزتها الحملة الفرنسية برعاية نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨م٠ و هذه الحملة الفرنسية ثبتت نقطة تحول في الحياة المصرية والعربية لأنها أيقظتها من سباتها العميق و بينت لها أنها تعيش في عالم آخر و جعلتها تؤمن بأن في الدنيا علوما غير تلك التي تلقى بين جدران الأزهر، و أدهشتها مظاهر المدنية الجديدة التي جاء بها نابليون، كما كان يرافق نابليون عدد من المهندسين والأطباء والمؤرخين والفلكيين والرياضيين وغيرهم من المهرة في مختلف العلوم والفنون، و في غضون مدة قصيرة تركت هذه الحملة الفرنسية طابعا ملموسا في الحياة المصرية والعربية ٠

وأنتج إنتهاء الإحتلال الفرنسي والياً كانت نفسه الكبيرة تسمو إلى هدف عظيم وهو الإستقلال بالبلاد و تأسيس دولة عربية تستقل عن الدولة العثمانية أو تقضي عليها ـ و لتحقيق هذا الهدف صمم محمد علي والي مصر على الإستعانة بالفرنج في أعماله الإصلاحية، فأوفد البعثات العلمية إلى أوربا و كان الأزهر يمده بأفرادها و جاء منها بأساتذة متخصصين يديرون مدارس الجيش والطب والصناعات والفنون فأصبحت مصر على إتصال وثيق بالغرب بعد أن كانت على شبه انقطاع عنه ٠

ومن هؤلاء الأساتذة المتخصصين والشخصيات العباقرة رفاعة رافع الطهطاوي الذي حمل لواء التنمية والتطور والإصلاح في كل مجال من المجالات العلمية والثقافية والأدبية الحديثة ٠

وكان رفاعة الطهطاوي مصريا صميما و درس في الأزهر الشريف و رشحه استاذه الشيخ حسن العطار ليكون إماما لأول بعثة علمية لفرنسا عام ١٨٢٦م، ولما

توسمه فيه من سعة الأفق والنبوغ وحسن الإستعداد و قد انتهز فرصة وجوده بفرنسا وأقبل على دراسة اللغة الفرنسية والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والإجتماع والرياضة والمنطق والجيولوجيا والطبيعة و علم السياسة يعني أن دراسته شملت مختلف نواحي المعرفة الإنسانية و ترجم أثناء وجوده في باريس إثنى عشر كتابا تناولت معظم الموضوعات سالفة الذكر و بعد أن عاد إلى مصر لم يتخصص في ترجمة نوع معين من الكتب بل ترجم منها ما رأى أنه يخدم غرضا قوميا و يسد نقصا علمياً .

و من أهم مؤلفاته، "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" و "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية"، و غيرهما من الكتب الشهيرة .

وقد تقلب رفاعة الطهطاوي في مناصب علمية كثيرة كانت ذات أثر كبير في نشر الوعي العلمي والثقافي والفكري في مصر، فكان مؤسس مدرسة الألسن التي كانت بمثابة جامعة بها كليات الآداب والحقوق و التجار ة ثم مديرا للمدرسة التجهيزية للطب ووكيلا للمدرسة التربية و مشرفا على تحرير المجلة العسكرية بالفرنسية والعربية .

وقد تخرج على يديه مئات الشبان المصريين المتعلمين كانوا نواة الطبقة المثقفة المصرية الصميمة في القرن التاسع عشر يدينون بالفضل لأستاذهم رفاعة الطهطاوي رائدهم و مرشدهم، و قد سيطرت هذه الطبقة المثقفة على مقدرات مصر العلمية والفكرية و شغلوا أهم مناصب الدولة وأصبحوا عمودها الفقري ورأسها المدبر وعقلها المفكر وامتد أثرها إلى جميع ميادين النشاط العلمي التجاري والزراعي والصناعي والحربي والبحري و حملوا بذلك لواء النهضة المصرية التي نسبها المؤرخون إلى شخصية محمد علي في حين يرجع الفضل الأول والأخير إلى هذه الطبقة المثقفة المصرية الصميمة التي خرجتها مدرسة رفاعة الطهطاوي و قد ألف رفاعة و ترجم و راجع حوالي ألفي كتاب في شتى العلوم والفنون، فلا عجب إذا اعتبره المؤرخون بحق مؤسس و رائد النهضة العلمية والأدبية في مصر الحديثة .

المصادر والمراجع

١.	احمد عزت عبد الكريم	تاريخ التعليم في عصر محمد علي	مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٨م
٢.	احمد الهاشمي	جواهر الأدب	مطبعة المفتطف والمقطم بمصر ١٩٢٣م
٣.	احمد ابراهيم الهوادي	نقد الرواية في الأدب العربي، الحديث في مصر	دار المعارف بمصر ١٩٨٣م
٤.	ابراهيم عبده	أعلام الصحافة العربية	مكتبة الآداب ، مصر ١٩٤٨م
٥.	انيس المقدسي	الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة	دارالعلم للملايين، بيروت
٦.	انيس صايغ	الفكرة العربية في مصر	بيروت، لبنان ١٩٥٩م
٧.	انور الجندي	أعلام و أصحاب أقلام	دار نهضة مصر
٨.	انور الجندي	تطور الترجمة في الأدب العربي المعاصر	مطبعة الرسالة
٩.	انور الجندي	اليقظة الإسلامية في موجهة الإستعمار	دار الإعتصام، القاهرة
١٠.	جرجي زيدان	بناة النهضة العربية	دار الهلال
١١.	جرجي زيدان	تاريخ آداب اللغة العربية، جـ ٤	دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان ١٩٦٧م
١٢.	جمال الدين الشيال	تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي	دار الفكر العربي بمصر ١٩٥١م
١٣.	جمال الدين الشيال	الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث	معهد الدراسات العربية العالية بمصر ١٩٥٨م
١٤.	جمال الدين الشيال	التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر	مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٨م
١٥.	جمال الدين الشيال	رفاعة رافع الطهطاوي	دار المعارف بمصر ١٩٧٠م
١٦.	جاك تاجر	حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر	دار المعارف بمصر ١٩٤٥م
١٧.	جودت الركابي	الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار	دار الفكر العربى بمصر ١٩٧٤م
١٨.	جودت الركابي	طرق تدريس اللغة العربية	دار الفكر، دمشق
١٩.	جعفر حسين خصباك	تاريخ العالم العربى الحديث	مطبعة سلمان الاعظمي، بغداد ١٩٧٢م

٢٠.	حسين مونس	الشرق الإسلامي في العصر الحديث	مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد ١٩٩٢م
٢١.	حسين فوزي النجار	رفاعة الطهطاوي	الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة
٢٢.	حنا الفاخوري	الجديد في الأدب العربي	دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٧م
٢٣.	رشيد يوسف عطاء الله	تاريخ الأدب العربي	دار المعارف بمصر
٢٤.	رفاعة رافع الطهطاوي	تخليص الإبريز في تلخيص باريز	الجمهورية العربية المتحدة وزارة الثقافة والإرشاد القومي الإقليم المصري
٢٥.	رئيف خوري	الفكر العربي الحديث	دار المكشوف، بيروت، لبنان ١٩٤٣م
٢٦.	سليمان رصد الحنفي الزياتي	كنز الجوهري في تاريخ الازهر	
٢٧.	سامي الكيال	ولي الدين يكن	دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٤م
٢٨.	سامي الدهان	عبد الرحمن الكواكبي	دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٤م
٢٩.	شوقي ضيف	البارودي رائد الشعر الحديث	دار المعارف بمصر ١٩٦٤م
٣٠.	شيوراى شودري	النهضة والتطور في الادب الحديث	مكتبة إشاعت الإسلام، چوڑي والان ٣٧٥٥، دلهي ١١٠٠٠٦
٣١.	صالح مجدي	حلية الزمن بمناقب خادم الوطن سيرة رفاعة رافع الطهطاوي	شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٩٥٨م
٣٢.	صلاح احمد هريدي علي	دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر	عين للدراسا والبحوث الإنسانية والإجتماعية الإسكندرية ٢٠٠٠
٣٣.	عبد الرحمن الجبرتي	تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ١-٣	دار الجبل بيروت، لبنان ١٩٧٨م
٣٤.	عبد الرحمن الرافعي	عصر محمد علي	مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١م
٣٥.	عبد الرحمن الرافعي	عصر اسماعيل	مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر١٩٣٢م

٣٦.	عبد الرحمٰن الرافعي	شعراء الوطنية	مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٤م
٣٧.	عبد الواحد اسماعيل	حركة تحرير المرأة في مصر	دار الاعتصام القاهرة ١٩٨٣م
٣٨.	عبد المحسن طه بدر	تطور الروايه العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٨٣م)	دار المعاصر بمصر ١٩٧٧م
٣٩.	عبد الغني	زعيم مصر السيد عمر مكرم	دار الهلال بمصر ١٩٥١م
٤٠.	عبد المحسن طه بدر	تطور الرواية العربية الحيدثةفي مصر (١٨٧٠-١٩٣٨م)	دار المعارف بمصر ١٩٧٧م
٤١.	عمر الدسوقى	محمود سامي البارودي	دار المعارف بمصر ١٩٧٠م
٤٢.	عمر الدسوقى	في الادب الحديث	دار الكتاب العربي بيروت، لبنان ١٩٦٦م
٤٣.	عمر طوسون	البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الأول و سعيد	مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية ١٩٣٤م
٤٤.	عمر دَقّاق	الاتجاه القومي في الشعر المعاصر	جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦١م
٤٥.	عمر رضا كحالة	معجم المؤلفين	مؤسسة الرسالة ، بيروت١٩٩٣م
٤٦.	فتحى رفاعة	لمحة تاريخية عن حياة و مؤلفات الشيخ رفاعة بدوي رافع الطهطاوي	مصر ١٩٥٨م
٤٧.	لويس عوض	المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث المبحث الثاني الفكر السياسي	معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٣م
٤٨.	لويس عوض	المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث (١) قضية المرأة	معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٣م
٤٩.	لويس شيخو اليسوعى	الآدب العربية في القرن التاسع عشر	مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت ١٩٢٦م
٥٠.	لمعى المطيعي	هؤلاء الرجال من الأزهر	مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٩م
٥١.	محمد حسين هيكل	تراجم مصرية و غربية	مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٥٢.	محمد كامل الفقى	الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة	مكتبة نهضة مصر ١٩٦٥م
٥٣.	محمد عمارة	رفاعة الطهطاوي رائد التنوير	دار الشروق القاهرة ١٩٨٨م
٥٤.	محمد خلف الله احمد	معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها	دار احياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦١م
٥٥.	محمد عبد الغنى حسن	حسن العطار	دار المعارف بمصر ١٩٦٨م

٥٦.	محمد محمد ي	دروس اللغة والأدب	بيروت، لبنان ١٩٦٨م
٥٧.	محمد محمد حسين	الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر	دار النهضة العربية بيروت، لبنان ١٩٧٢م
٥٨.	محمد الشرقاوي	مصر في القرن الثامن عشر الجزء الثالث	مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧م
٥٩.	محمد يوسف كوكن	أعلام النثر والشعر في عصر الحديث	دار حافظة للطباعة والنشر١٣، حارة ميلابورن مدراس ١٤، ١٩٨٠م

فهرس الموضوعات

المقدمة الف

الباب الأول : عصر رفاعة رافع الطهطاوي صـ ١

الفصل الأول : الحياة السياسية صـ ٢

الفصل الثاني : الحياة الإجتماعية صـ ٩

الفصل الثالث : الحياة العقلية والثقافية صـ ١٧

المصادر والمراجع صـ ٢٧

الباب الثاني : رفاعة رافع الطهطاوي في عصره صـ ٣٠

الفصل الأول : حياته و فكرته الإجتماعية صـ ٣١

الفصل الثاني : رفاعة في باريس صـ ٤٢

الفصل الثالث : أعماله بعد عودته من فرنسا صـ ٤٩

الفصل الرابع : رفاعة المعلم والمدرس صـ ٥٨

الفصل الخامس : مكانة رفاعة رافع الطهطاوي لدى العلماء صـ ٦٤

المصادر والمراجع صـ ٧٢

الباب الثالث : الجوانب الأدبية في حياة رفاعة رافع الطهطاوي صـ ٧٦

الفصل الأول : رفاعة و إصلاحات في مجال التعليم صـ ٧٧

الفصل الثاني : رفاعة و قضية المرأة صـ ٨١

الفصل الثالث : رفاعة المعرب المترجم صـ ٨٧

الفصل الرابع : آثار رفاعة رافع الطهطاوي والتعريف ببعض كتبه صـ ٩٦

الفصل الخامس : تأثير آثار رفاعة الطهطاوي على الفكر السياسي والإجتماعي في الأدب العربي الحديث صـ ١٠٤

المصادر والمراجع صـ ١١١

الباب الرابع : منتخابات من آثار رفاعة رافع الطهطاوي صـ ١١٦

الفصل الأول : رفاعة الناثر صـ ١١٧

الف – وطنياته صـ ١١٧

ب – آراؤه في التربية والإجتماع صـ ١٢٠
ج – وصفه لبعض مظاهر صـ ١٢٢
المجتمع الفرنسي
الفصل الثاني : رفاعة الشاعر صـ ١٢٦
الف – وطنياته صـ ١٢٦
ب – شعره الوصفي صـ ١٣٠
ج – أشعاره التربوية صـ ١٣١
د – شعره الغنائي صـ ١٣٣
المصادر والمراجع صـ ١٤٠

Refa'ah Rafie' Al-Tahtawi and his Contribution to the Modern Arabic Literature

Dissertation submitted to the Jawaharlal Nehru University
in partial fulfilment of the requirements for
the award of the degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

By

ZAKIR HUSSAIN JAMSHED

UNDER THE SUPERVISION OF

Prof. FAIZANULLAH FAROOQUI

CENTRE OF ARABIC AND AFRICAN STUDIES
SCHOOL OF LANGUAGES, LITERATURE & CULTURE STUDIES
JAWAHARLAL NEHRU UNIVERSITY
NEW DELHI-110067
INDIA

2004